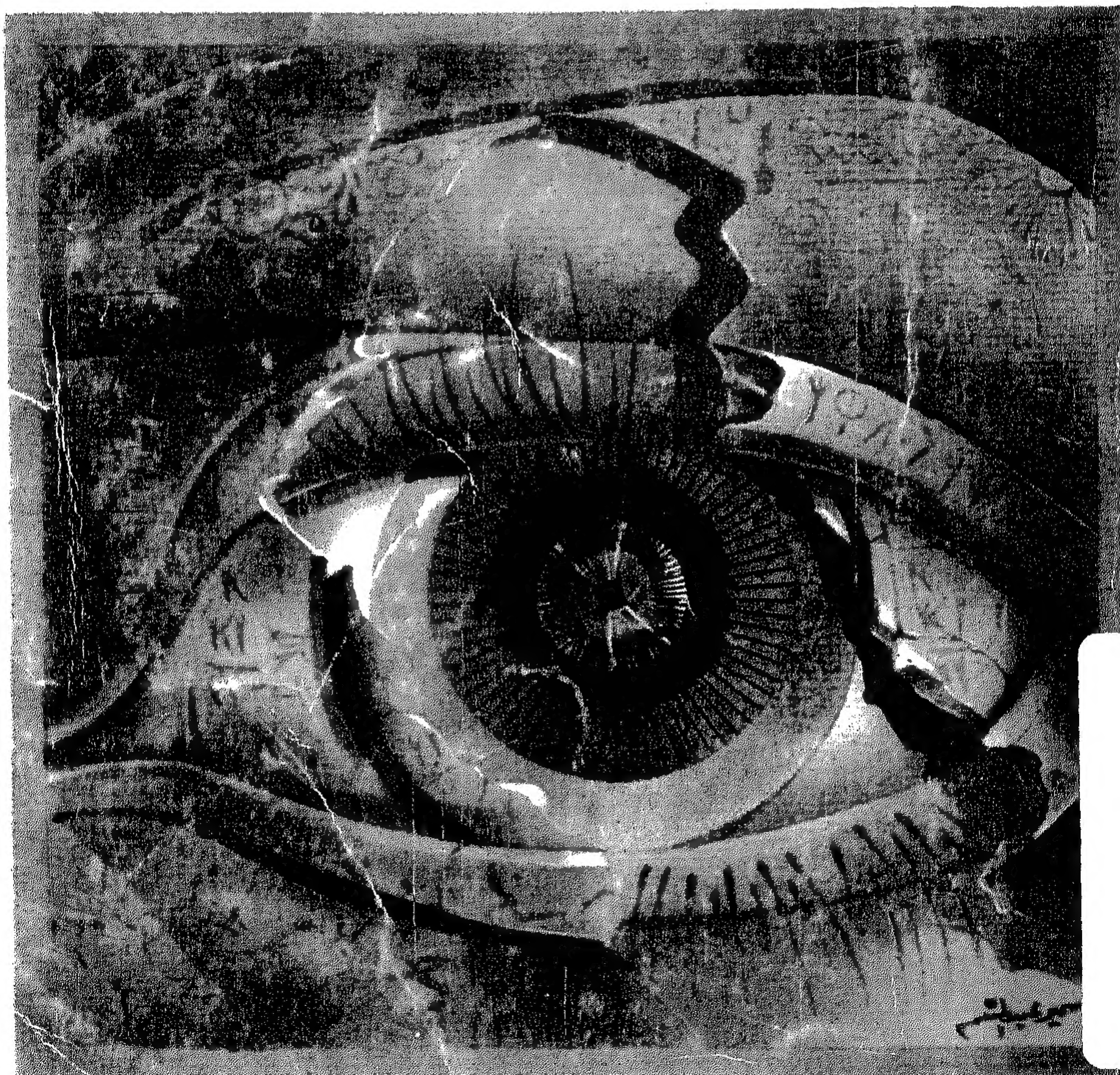
ثورة حضارية زاحفة

وماذا عن مستقبل مصر..؟

راجي عنايت



دار الهلال

الطبعـــة الأولـــى ١٩٨٧

راجى عنايت

ثورة حضارية زاحفة

وماذا عن مستقبل مصر؟

دار الهلال

الغلاف بريشة
الفنان : سمير عبد المنعم

مقدمـــــة

مع كل المشاكل التى نعانى منها لا يجوز أن نعتبر الحديث عن المستقبل نوعا من الرفاهية . إذا كانت الحكومة تهتم بالمشاكل اليومية ، من يوم إلى يوم ، أو تحاول أن ترتب مسبقا أسلوب مواجهتها للمشاكل لعدة شهور قادمة ، أو تضع ـ على أحسن الفروض ـ خططا خمسية ، فواجب المثقفين والمفكرين أن يوسعوا أفق تصورهم ، حتى يمتد الى المستقبل القريب والبعيد ، ليس على سبيل التزيد أو التفلسف ، ولكن بهدف الوصول إلى تصورات ، توضع تحت عين الحكومة ، لكى تستفيد منها ، حتى فى حل المشاكل اليومية .

نحن ، بمنطق الحضارة الصناعية ، نتخلف بشكل متسارع عن الدول الصناعية المتطورة ، مهما بذلنا من جهد ، وابتكرنا من حلول . إذا خطونا خطوة إلى الأمام ، تكون هى قد خطت خمس خطوات ، ومعنى هذا أن الهوة بيننا تتسع بصفة دائمة .. مما يوحى بأن التفكير فى المستقبل البعيد خاصة ، يقود حتما إلى اليأس والاحباط .

هذا هو المنطق الذى يحكم معظم مفكرينا ، وهو منطق يستمد قوته من استمرار الحضارة الصناعية وإزدهارها . وهو ما يجعل التفكير فى المستقبل بين أبناء الدول المتخلفة صناعيا أو النامية محدودا ومريرا .

لكن .. كل المؤشرات تفيد بأن الحضارة الصناعية ، بكل ما تمثله على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية تلفظ أنفاسها الأخيرة وتتلقى ضربات عنيفة تحطم دعائمها وتمهد الطريق لحضارة جديدة تماما . .

لأول مرة منذ ثلاثة قرون ، يتاح للدول النامية ـ ونحن من بينها ـ فرصة اللحاق بالركب لو استطعنا أن نفهم أسس الحضارة القادمة ، وأعددنا أنفسنا لتبنى هذه الأسس ، حتى نحتل مكاننا فى العالم الجديد .

لأول مرة فى التاريخ القريب يتاح للدول النامية أن تقوم بما يشبه (التخريمة) الحضارية ، بحيث تلتف حول الهوة التى تفصل بينها وبين الدول الصناعية المتطورة ، علما بأن طبيعة الحضارة القادمة ، بحكم تناقضها مع الحضارة الصناعية ، تتيح للدول النامية فرصا أسهل وأيسر فى التطبيق .

الخطأ القاتل الذى تقع فيه معظم الدول النامية ، هو تصورها حتمية السعى اللاهث وراء نموذج التطور التاريخى فى الدول الصناعية ، فى الوقت الذى بدأت فيه الدول الصناعية نفسها تتخلى ، مرغمة ، عن ذلك النموذج . إذا كانت الأصول تقول إنه لكى تستحم يجب أن تخلع الحذاء قبل الدخول الى الحمام ، فمن المضحك إذا كنت حافيا ، أن تعمد ألى لبس الحذاء وخلعه ، التزاما بالأصول .

اختيار الموقف الذى يناسبنا أكثر من غيره فى انطلاقنا إلى المستقبل يقضى - أولا - التعرف على جوهر ومظاهر الحضارة الصناعية . فالحضارة الصناعية ليست هى مجرد المداخن ، وهدير الآلات ، وخطوط التجميع الزاحفة بلا توقف .. الحضارة الصناعية عقيدة وايديولوجية وفكر ونمط حياة ، علينا أن نتعرف جيدا على المبادىء الأساسية التى تحكم هذه الحضارة ، وتصبغ كل شىء فيها .

هذه المعرفة ، هى التى ستتيح لنا أن نتبين كيف يتم حاليا انهيار وتداعى هذه الحضارة بتداعى الأسس التى تقوم عليها . وهى التى ستجعلنا نرى وسط الفوران العالمى الذى يبدو عشوائيا . نسقا ثابتا للحضارة الجديدة التى تتخلق .

الحضارة القادمة ، لاتشبه فى شىء ما سبقها من حضارات . وهذا يعنى أن ما كان بين أيدينا من مقاييس وأدوات وموازين قد سقط ، ولم يعد صالحا فى تناول حقائق الحضارة القادمة ..

معنى هذا بالتحديد ، أننا فى هذه المرحلة بالذات - مرحلة التغييرات الشاملة - لانستطيع أن نفهم المستقبل بمجرد مد خطوط الماضى على استقامتها . وفى تقديرى ، أن هذه الحقيقة هى مصدر

الخطأ الذى يقع فيه معظم من يفكرون ويكتبون عن المستقبل عندنا ، والذى تقع فيه الهيئات والمجالس المتخصصة التى تجتمع لترسم صورة مصر عام ٢٠٠٠ . إن نظرتهم إلى المستقبل لاتتجاوز اعتباره تراكما كميا للحاضر ، لا يحتاج إلى أكثر من مد الخطوط على استقامتها ، وأن المثل الأعلى هو أن نصل بمصر إلى أن تصبح صورة من الولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفييتى ، منذ نصف قرن مثلا .

لقد كان هذا المنطق سليما منذ أكثر من ربع قرن ، عندما كانت الأسس والقواعد الخاصة بالحضارة الصناعية هى هى لاتتغير . لكن فى لحظات التغيير الثورى ـ كالتى نمر بها الآن ـ يصبح القياس على الماضى مضللاً ، ولا يفيد فى فهم المستقبل .

فى الدول الصناعية المتطورة ، سواء كانت رأسمالية أم أشتراكية ، يجرى حاليا التصادم بين حضارة صناعية متداعية ، وحضارة ما بعد الصناعة الزاحفة ، أما عندنا ، وعند الكثير من الدول النامية أو المتخلفة ، فنحن نرى صراعا بين ثلاث حضارات فى نفس الوقت . حضارة زراعية مازالت تتحكم فى عقول البعض ، وحضارة صناعية نامية ، وأن كانت قد تمكنت من أن تصبغ حياتنا إلى حد بعيد بمنطق الأيديولوجية الصناعية العليا ، ثم أخيرا ارهاصات حضارة مابعد الصناعة ، التى تتدفق إلى أنحاء العالم الصناعى وغير الصناعى ، بفعل مستحدثات الاتصال التكنولوجية ، التى تسقط الحدود والتقسيمات الجغرافية .

من أهم سمات الحضارة الجديدة أنها ـ بعكس الحضارة الصناعية ـ لاتؤمن بالقوالب النمطية ، مما يتيح للشعوب النامية أن تبنى كيانها دون أن تضطر إلى إلغاء هويتها ومزاجها وعقائدها الخاصة .

الحضارة الصناعية كانت ترسم أنماطا محددة ، لابد من الالتزام بها لكل دولة تريد أن تدخل نادى الصناعة .. وهى أنماط لاتعترف بخصوصية كل الشعب ، ولاتهتم بطبيعة الشعوب أو توجهاتها

الوجدانية أو العقائدية .

وهذه ميزة كبرى للشعوب النامية ، ذات الحضارات العريقة ، أو ذات العقائد الخاصة ، إلا أن هذا يضع مزيدا من العبء على كواهل الذين يتصدون لتخطيط مستقبل هذه الشعوب فى إطار الحضارة القادمة . فهم مطالبون بابتكار القوالب الخاصة النابعة من هوية مجتمعاتهم والمتفقة مع الخطوط العريضة لحضارة مابعد الصناعية .

مطلوب إلى المفكرين والمثقفين ، بشكل خاص أولئك الذين تتصل دراساتهم أو ممارساتهم بالتخطيط .. مطلوب إليهم أن يبذلوا جهدا جماعيا ، يختارون له الاطار الأنسب ، لمناقشة الأوضاع الخاصة بناء على أساس واقعى ، وتأمل التغيرات المتسارعة والحادة التى يمر بها العالم ، بهدف البحث عن أكثر الطرق سلامة فى العبور إلى الحضارة القادمة ، وأكثرها توافقا مع وجدان وعقائد ومزاج الشعب المصرى .

مطلوب إليهم أن يفكروا فى الخطط العاجلة التى يمكن أن نبدأ فى تنفيذها والتى تساعدنا فى الأعداد للخطط طويلة المدى التى ستصل بنا إلى حضارة مابعد الصناعة ، دون أن نضطر الى الالتزام بخطى الدول الصناعية الكبرى .

حتى ونحن نجتهد لحل المشاكل الراهنة ، من تدبير لرغيف الخبز ، أو إصلاح لشبكة المجارى ، أو دعم لشبكة الاتصال ، تكون أمامنا عدة خيارات . وجهد المفكرين والمخططين يساعد على اعتماد الخيار الأفضل والأنسب مستقبلا .

أعلم أن ما أدعو إليه ليس سهلا ، وأعلم أن أيسر الطرق هو أن توكل هذه المهمة إلى إحدى الهيئات المختصة بالتخطيط ضمن مهامها . لكنى أطمع فيما هو أكثر ثورية ، فى أن يقتنع بهذه الدعوة عدد من المثقفين ، وأن يتحمسوا لها ، وأن يبدوا استعدادا للخروج من مشاكلهم اليومية ، وارتباطاتهم الوظيفية ، ولو لبعض الوقت ، لكى يساهموا فى هذه الخدمة الوطنية والانسانية .

قد تبدو هذه دعوة مثالية ، لكن حدسى يقول لى أنه مازال بين المثقفين المصريين من هم على استعداد لتحمل هذا العبء

وللتصدى لهذه الخدمة .. قد يكونون قلة ، لكننا لانحتاج فى هذه المرحلة الى أكثر من نواة . نواة لحزب « مصر المستقبل » وهو حزب لايسعى إلى الحكم ، أو إلى الدخول فى صراع مع الأحزاب الحالية ، لكن مهمته الأسمى أن يستقطب المخلصين من كل الأحزاب والفئات ، وتتلخص فى التنوير والترشيد وخلق رأى عام مستتير ، يساعد الحكومة والاحزاب فى الاقتراب من الخط الأسلم الذى يعدنا للمستقبل القريب . ويساعدنا على الدخول فى حضارة مابعد الصناعة ، بأقل عنف وأيسر الآلام .

تداعى الحضارة الصناعية

قبل أن أجيب عن التساؤلات التى تثار حول مستقبل العالم عام ٢٠٠٠ ، أحب أن أوجز ما طرحته بالتفصيل حول الموجات الحضارية التى تتعاقب على البشر ، على سبيل الحصر والتذكير :

(١) تتوالى الموجات الحضارية التى تشكل كل شىء فى حياة البشر ، وتكون لكل حضارة منها ايديولوجيتها العليا السائدة ، رغم ما قد يظهر من اختلاف أو تباين .

(٢) فى أعقاب الحضارة الزراعية التى عاشت عشرة آلاف سنة ، زحفت الحضارة الصناعية فبدلت وجه الحياة على الأرض ، وفرضت ايديولوجيتها العليا ، على مدى ثلاثة قرون .

(٣) أهم خصائص الحضارة الصناعية ابتداعها السوق ، كوسيط بين الانتاج على نطاق واسع ، والاستهلاك على نطاق واسع ، وهى لاتشبه فى شىء السوق التى عرفتها الحضارة الزراعية ، فالسوق فى الحضارة الصناعية تسيطر على كل مرافق الحياة ، وتتحكم فى الانتاج والاستهلاك ، عن طريق مؤسساتها المختلفة ، من البورصة إلى البنك المركزى إلى الحكومة .

(٤) قامت الحضارة الصناعية على ثلاث عقائد أساسية : عقيدة حق الانسان المطلق فى استغلال الطبيعة ، حتى لو قاد ذلك إلى استنزاف موارد الطاقة غير المتجددة ، وتلويث الغلاف الجوى .

وعقيدة تعتبر الانسان قمة التطور على الأرض ، والحضارة الصناعية أعلى أشكال التطور الحضارى ، الأمر الذى برر استعمار الشعوب واستغلال ثرواتها . وأخيرا عقيدة أن التاريخ يندفع بلا رجعة نحو حياة أفضل للبشر ، وكل انجاز صناعى جديد ، أيا كان أثره ، هو خطوة فى طريق التقدم .

(٥) فرضت الحضارة الصناعية ستة مبادىء على كل نواحى الحياة العامة والخاصة هى : الأخذ بالنطاق الواسع فى كل شىء ، وجعل كل شىء نمطيا قدر المستطاع ـ ثم التخصص الشديد ، الذى يحصر الانسان فى عملية جزئية جدا لا يدرى أو يحس بمكانها فى الكل ـ والحرص على التزامن ، أو توافق حدوث الأشياء فى زمن واحد . بالمدرسة كما بالمصنع ـ والتركيز الشديد فى كل شىء ـ وعشق الضخامة والسعى إلى الوصول للنهايات العظمى ، فى المؤسسة كما فى المبنى كما فى المصنع ـ وأخيرا المركزية الكاملة واعتماد الشكل الهرمى فى إدارة الحياة . الدارس المتفحص يمكنه اكتشاف أن هذه المبادىء هى التى تسود الدول الصناعية الكبرى ، سواء كانت رأسمالية أم اشتراكية .

(٦) هذه الحضارة الصناعية التى حكمت حياتنا على مدى ثلاثة قرون ، بدأت تهتز دعائمها ، وتنهار قيمها ، ومن مؤشرات هذا الانهيار ، وصول الحرب مع الطبيعة إلى مداها ، فالغلاف الجوى لايتحمل المزيد من التلوث . ومصادر الطاقة غير المتجددة (فحم وغاز وبترول) آخذة فى النضوب . هذا الوضع سيقود حتما إلى البحث عن مصادر جديدة للطاقة ، مما يؤدى إلى حالات انكماش متتابعة تؤثر على كيان الحضارة الصناعية .

ثم هناك التناقص المتزايد فى المواد الخام ، وانحسار النفوذ الاستعمارى الذى كان يتيح هذه المواد بأقل الأسعار . بالاضافة إلى الصراعات السياسية والاجتماعية التى بلغت مداها فى الدول الصناعية الكبرى .. وأخيرا ، الأزمات المتفاقمة التى تعانى منها المؤسسات الكبرى ، وتزايد البطالة فى نفس وقت تزايد التضخم ،

لأول مرة فى تاريخ الحضارة الصناعية .

معالم الحضارة القادمة

وعلى سبيل التذكير أيضا ، أوجز هنا بعض المعالم الأساسية للحضارة الجديدة التى بدأت زحفها على الدول الصناعية الكبرى فى منتصف خمسينيات هذا القرن :

(١) الاعتماد على مصادر طاقة متجددة ، واختيار الأنسب لكل نشاط ولكل موقع .

(٢) تنويع الأسس التكنولوجية ، وعدم التركيز على الصناعات الكهروميكانيكية (كالصلب والمطاط والسيارات) . والتوسع وفى الصناعات الجديدة ، كالالكترونيات ، وهندسة الجينات ، وأشباه الموصلات وعلوم المحيطات والفضاء .

(٣) انقضاء عصر جماهيرية الاعلام ، والحرص على الرؤية النمطية عند الجمهور ، وإتاحة الفرصة لتعدد الرؤى وتنوع الاتجاهات ، واعتماد الناس على الكمبيوتر الشخصى الذى يتصل بمخازن المعلومات وبجهة العمل عن طريق شبكة الكابلات .

(٤) انتهاء عصر المدن الكبرى ، نتيجة تفتيت مراكز الانتاج الصناعى الضخم ، وقيام وحدات انتاجية صغيرة ، تخضع أكثر لاحتياجات وطبيعة الأقليم ، ولرغبات المستهلكين .

(٥) نظام انتاجى جديد ، ينقل نسبة كبيرة من النشاط الانتاجى إلى البيت المزود بوسائل الاتصال الالكترونية ، توفيرا للطاقة ، وحدا للتلوث ، واقتصادا فى الجهد والوقت .

(٦) تغيير البناء الحالى لسوق التوزيع ، وتفتيت المؤسسات الضخمة إلى وحدات أصغر وانتشارها مكانيا . كذلك اضفاء الطابع الإنسانى على المؤسسة الاقتصادية ، بعد أن تدخل فى اعتبارها كافة الأهداف الاجتماعية والبيئية والخلقية .

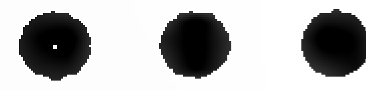
(٧) انتهاء عصر يوم العمل التقليدى ، والتوقف عن الالتزام

بالتوقيت والتزامن الميكانيكى الذى ساد الحضارة الصناعية ، وتحديد ساعات وأيام العمل وفقا لرغبة العامل .

(٨) زيادة حجم الانتاج الذى يقوم به المنتج لكى يستهلكه هو ، وليس لتقديمه إلى سوق المبادلة . وسيساعد هذا على انتهاء السيطرة الحالية للسوق على حياة البشر .

(٩) انحسار سلطة الدولة ، بضغط جماهيرى من أسفل ، وضغط المنظمات العالمية من أعلى ، وشيوع نظام عالمى يتكون من وحدات صغيرة (غالبا أصغر من الدولة الحالية) ترتبط فيما بينها شبكيا بشكل محكم ، مثل ارتباط النيورونات أو الخلايا العصبية .

(١٠) أمل جديد لدول العالم الثالث التى لن تكون مضطرة فى تطويرها إلى الالتزام الأعمى بنمط مجتمعات الحضارة الصناعية ، معانية أحباط من يبدأ حركته متأخرا . سيتاح لدول العالم الثالث أن تتبنى استراتيجيات تطور وتنمية ، جذرية فى جدتها ، تعكس خصائصها الأقليمية والدينية والثقافية .



قد يجد القارىء - الذى لم يتابع سلسلة مقالات « العالم سنة ٢٠٠٠ » - صعوبة فى تفهم هذا الطرح الموجز ، ولهذا ، فكرت فى طرح الموضوع من زاوية أخرى .. من زاوية الرد على التساؤلات التى أثيرت حول المقالات ، مستعينا برد الكاتب ألفين توفلر على بعض التساؤلات التى وجهتها إليه مجموعة باحثين من « ساوث اندبريس » وتضمنها كتابه الأخير « نظرات ومقدمات » .

راجى عنايت
يوليو ١٩٨٦

الفصل الأول

زلــزال اقتصــادى وليــس أزمــــــة ..

ما الذى يجرى الآن ؟

الدول الغربية الرأسمالية تعانى من معدلات أعلى للبطالة ، لم تشهد لها مثيلا منذ الأزمة الاقتصادية التى عرفتها فى الثلاثينيات ، والدول الشيوعية ، مثل بولندا ورومانيا ، وصلت فعلا إلى حد الافلاس . الاقتصاد السوفييتى يتعثر ، النظام المصرفى العالمى يتأرجح على شفا هاوية . الآراء والأفكار التى يتقدم بها الاقتصاديون تزداد تباعدا عن الواقع مع كل ساعة من الزمن .

مع كل هذا ، مازال يشيع فهم خاطىء لطبيعة الأزمة التى يمر بها الاقتصاد العالمى .. العديد من المضامين الاقتصادية الأساسية أصبحت متخلفة .. لماذا ؟ وكيف ؟ وإلى متى ؟ .. لن تعثر على إجابة شافية من المحافظين أو المتحررين ، من اليمين أو اليسار .

إن مايحدث فى عالمنا اليوم لايشبه الإعصار ، الذى يكتسح مافوق سطح الأرض ، تاركا الأرض نفسها على حالها .. أنه أقرب إلى بدايات الزلزال . تحت الأرض التى أقيمت عليها اقتصادياتنا ، تجرى تقلصات وإزاحات وتشققات ونحن فى سعينا إلى الحيلولة دون حدوث انهيار أساسى ، نتعامل مع الظواهر السطحية بدلا من التركيز على دراسة التركيب الأعمق للأرض التى نقف عليها ، حيث تجرى التغيرات الفعلية الكبرى .

زلزال .. أم مناورة رأسمالية ؟

والآن ننتقل إلى الأسئلة التى وجهت إلى ألفين توفلر حول الأوضاع الاقتصادية ، العالمية وردوده عليها :

● أنت تتحدث عن زلزال اقتصادى ، بينما يقول البعض فى

الولايات المتحدة الأمريكية إن مايجرى أمر محكم تم تدبيره عمدا لصالح النظام الرأسمالى الأمريكى . جرعة البطالة ـ من وجهة نظرهم ـ تجعل العمال أكثر مرونة ، وتدفع النقابات إلى قبول خفض فى الأجور . بالاضافة إلى أن هذا سيضطر النساء والأقليات العرقية إلى التخلى عن المكاسب التى سعت إليها على مدى السنين ، وهم يقولون إن خفض مزايا الخدمة الاجتماعية وإعانات البطالة يرغم العمال على دخول سوق العمل بأى ثمن ، من خفض للأجور ، وقصور فى ظروف العمل .

بإختصار ، البطالة المتفشية حاليا تعنى أن المؤسسات الاقتصادية أصبح بإمكانها أن تخفض الأجور ، وتزيد من الانتاج ، وتحقق زيادة فى الأرباح أيضا .

ـ هذه هى إحدى طرق النظر ، إلى الموضوع ، إلا أن هذه الأزمة تندفع عبر العديد من الدول فى نفس الوقت . بالاضافة إلى أن فكرة اعتبار هذا تدبيرا مسبقا تفترض درجة من التحكم تتجاوز ما يمكن توقعه فى المجتمع الأمريكى . كما أن هذه الرؤية تتجاوز أساسا بعض النقاط الأكثر أهمية .

تصف الصحافة مايجرى بأنه ركود مؤقت ، لكن عندما يمسك هذا الركود المؤقت شخصيا ، فإنك قد لاتقبل هذا الوصف وتميل إلى اعتباره كسادا اقتصاديا . ومع ذلك فوصف مايجرى باعتباره ركودا مؤقتا أو كسادا ، يعنى تركيز الانتباه على الأعراض وليس على الأسباب .

أثناء أزمات الكساد السابقة ، كانت هناك أزمات فى الصناعات الأساسية ، بطالة ، هبوط فى المبيعات ، افلاسات ، رهونات ، إغلاق لصناعات كبرى . لكن نادرا ما كنت ترى صناعة قوية جديدة صاعدة فى نفس الوقت .

واليوم ، تمر الصناعات التى تلتزم بالانتاج على نطاق واسع ـ مثل السيارات والصلب والمطاط والنسج ـ والتى هى العمود الفقرى للاقتصاديات التقليدية ، هذه الصناعات تمر بحالة إحتضار . مصانع

الصلب البلچيكية ، مصانع السيارات البريطانية ، مصانع النسيج فى نورث كارولينا واليابان .. كلها تعانى من لطمات قوية ، ومع ذلك ، نرى فى نفس الوقت انفجارا فى صعود صناعات الالكترونيات ، والكمبيوتر ، والمعلومات ، وهندسة الجينات ، وسفر الفضاء ، ووسائل الحفاظ على البيئة ، وفى صناعات الطاقة البديلة .. كل هذه الصناعات تقريبا تمر بحالة انتشار ورواج .

إن مايجرى ليس ركودا مؤقتا ، ولكنه إعادة بناء شامل لقواعد الاقتصاديات التكنولوجية فى المجتمع .. أنه أشبه بالزلزال الذى يقذف إلى السطح بتربة جديدة . مالم نفهم هذا ، فلن يجدينا التفكير فى سعر الفائدة أو الضرائب ، أو الأجور أو سياسات الأسعار ، والعلاقات التجارية . وفى نفس الوقت ، لن تجدينا المظاهرات والاضطرابات . أننا نتحول من اقتصاد الموجة الثانية إلى اقتصاد الموجة الثالثة .

الزراعة والصناعة

● قبل أن نواصل الحديث ، هل يمكن أن تشرح لنا اصطلاح الموجة الثالثة وتعرفه ؟

- تكون الاصطلاحات عادة نوعا من التبسيط المخل . ولكنها تساعدنا على أن نضع مايجرى حاليا من تغيرات فى منظوره التاريخى .

بإجمال شديد ، وتبسيط أشد ، نقول إنه منذ آلاف السنين ، بدأت تنتشر فى أنحاء الأرض موجة الزراعة . وتحول البدو والصيادون وصائدو السمك المغيرون إلى مزارعين . وبدأت القرى انتشارها السريع . وهكذا تشكل مايمكن أن نسميه « حضارة » ، ومن أجل التبسيط دعنا نطلق على هذه الحضارة إسم « الموجة الأولى » من موجات التغيير .

ومنذ ٣٠٠ سنة ، بدأت موجة ثانية من موجات التغيير ، وعلى

إتساع يصل إلى ربع مساحة الكرة الأرضية . حلت محل الحضارة الزراعية القديمة عناصر جديدة .. الآلات ، الانتاج والاستهلاك على نطاق واسع ، الاعلام الجماهيرى ، التعليم النمطى .. وهى طرق فى الحياة تتشكل كلها وفقا للأسس التى يقوم عليها المصنع . وأنا أطلق على انتشار هذه الحضارة اسم « الموجة الثانية » .

إعادة بناء الحضارة

● إذا كانت الموجة الأولى قد جاءت بالزراعة والموجة الثانية قد جاءت بالمجتمع الصناعى القائم على الانتاج الواسع النطاق ، فما الذى تجىء به الموجة الثالثة ؟

ـ من الصعب جدا تعريف الثورة الجديدة بشكل محدد ، لأننا نعيش فى بداياتها بالضبط ، كما أن الشخص الذى ولد فى زمن زحف الثورة الصناعية لم يكن مدركا للتغيرات التى تدور حوله ، لكنه كان مرتبكا لفرط تعقيد وتركيب هذه التغيرات . نحن الآن فى نفس الموقف ، تبدو لنا التغيرات ، وكأنها أحداث لاترتبط ببعضها ، تندفع بقوة عظيمة .

قد تكون هى الكمبيوتر ، لكنها ليست الكمبيوتر فقط .

قد تكون الثورة البيولوچية ، لكنها أكبر من مجرد الثورة البيولوچية .

إنها التحول فى أشكال الطاقة ، إنها التوازن العالمى الجديد فى السياسة الطبيعية ، بعناصرها الجغرافية والاقتصادية والبشرية ، إنها التمرد على السلطة الأبوية . إنها بطاقات الضمان المصرفية بالاضافة إلى ألعاب الڤيديو ، وبالاضافة إلى أجهزة (ووكمان). إنها الأقليمية مع العالمية ، إنها الآلات الكاتبة المتطورة ، والعاملون فى مجال المعلومات ، والنظام المصرفى الالكترونى . إنها الاندفاع نحو اللامركزية .. على أحد جانبيها مكوك الفضاء ، وفى الجانب الآخر البحث عن الهوية الفردية .. إنها الزمن المرن ، والانسان الآلى والقوة

الصاعدة للأجناس السوداء والسمراء والصفراء على ظهر كوكبنا .

إنها الدفع المترابط المتبادل التأثير لكل هذه القوى ، التى تقلب أسلوب الحياة الصناعية ، وتنهيه ، وفوق هذا كله ، إنها تسارع التغييرات فى ذاته ، والذى يجعل زمننا هذا علامة من علامات التاريخ .

لكى نعقل كل هذه التغيرات التى تبدو عشوائية ، غير متصلة ببعضها البعض نحتاج إلى تصورات قوية وجديدة ، وهذا هو ماحاولت تقديمه فى كتابى « الموجة الثالثة » نموذج يساعد فى التعرف على العلاقات الداخلية بين كل هذه التغيرات . لكننا نحتاج أيضا إلى نماذج اقتصادية جديدة ، لانك لن تستطيع أن تبدأ فى فهم الاقتصاد ، إلا إذا ربطت بينه وبين هذه القوى الجديدة .

نحن نعيد بناء الهيكل الاقتصادى ، لأننا نعيد بناء حضارتنا بأكملها .

إنهيار .. وإعادة بناء

● وما الذى ـ فى رأيك ـ يدفع باقتصادنا إلى التدهور هذه الأيام ؟

ـ لقد حاول البعض إرجاع الأزمة الأقتصادية الحالية إلى أنخفاض الانتاجية ، أو إلى كسل العمال ، أو غباء الإدارة ، أو إلى الخدمات الاجتماعية الكثيرة التى تقدم إلى العاملين . أو إلى الاستثمارات غير الناجحة ، أو إلى تدهور اخلاقيات العمل . وحاول البعض إرجاعها إلى المستوردات اليابانية ، أو إلى أسعار الفائدة الأمريكية ، أو إلى موقف العرب ، أو السود ، أو اليهود ، أو إلى العمالة المهاجرة إلى أمريكا ، أو إلى غرور الرأسماليين .

ومن ناحية أخرى يصر الماركسيون على اعتبار أن مايجرى هو ضمن أزمة عامة للاقتصاد الرأسمالى ، كما لو أن الاقتصاديات الماركسية لاتعانى هى الأخرى من الأزمات ، حقيقة الأمر أن أيا من هذه التبريرات لايتفق مع الأمر الواقع .

الغرض الأساسى فى كتاباتى هو تأكيد أن أزمة اليوم ليست أزمة سوء توزيع ، أو زيادة أو نقص فى الانتاج ، أو انخفاض فى إنتاجية العامل ، لكنها أزمة إعادة بناء وتشكيل .. أزمة انهيار اقتصاد الموجة الثانية أو عصر الصناعة ، وبزوغ اقتصاد جديد ، ينبع من الموجة الثالثة ، التى تؤثر بشكل قوى فى عدة مسائل أساسية .

أما وسائل العلاج النابعة من الموجة الثانية ، سواء كانت صادرة من اليمين أو اليسار ، فلن تفعل أكثر من تعميق الأزمة .

● كيف يختلف اقتصاد الموجة الثالثة عن إقتصاد الموجة الثانية ؟

ـ يمكن أن أوجز تصوير هذه الاختلافات . لكن لابد لنا أولا من أن نضع إطارا للطرح . التغيرات التى أتكلم عنها تغيرات عالمية ، تؤثر فى العديد من الدول . وهى تغيرات ثورية ، ليس بالمعنى السياسى الضيق ، ولكن بمعنى أنها تفرض تحولات اجتماعية شاملة .

الأزمة ليست رأسمالية أو شيوعية ، إنها ، أزمة صناعية ، فكل من الاقتصاد الرأسمالى والاقتصاد الشيوعى يترنح ، ومن الناحية التاريخية ، يمكننا القول بأن الاقتصاد الذى جاءت به حضارة الموجة الثانية ، يمضى نحو أزمته القاضية حتى بالرغم من أننا قد نشهد هذا الاقتصاد يقوم بوظيفته فى بلاد مثل كوريا الجنوبية والبرازيل والمكسيك . الثابت أن القوى الثقافية والتكنولوجية التى خلقت الحضارة الصناعية وأشاعتها قد تبددت .

● أعتقد أننا قد نحتاج إلى بعض الأمثلة على هذا ؟

ـ خذ مثلاً مسألة الانتاج على نطاق واسع . فهو أكثر الأشياء تعبيرا عن العصر الصناعى . نحن بالفعل قد تحركنا من الانتاج على نطاق واسع والاستهلاك على نطاق واسع ، إلى ما أطلقت عليه اقتصاد التفرد أو التشرذم (أى فى مقابل نمطية النطاق الواسع للإنتاج) .

في الصناعة التقليدية التى تجرى على نطاق واسع ، تتدفق من المصانع أنهار من المصنعات النمطية بالملايين . أما فى الموجة الثالثة ، فنجد فى مكان الانتاج النمطى الذى يتم على نطاق واسع ، وعلى عكسه ، انتاجاً غير نمطى ، بكميات قليلة ، وربما حسب الطلب . إنتاج قطعة بقطعة ، يعتمد على الكمبيوتر والتحكم العددى . حتى عندما تستخدم ملايين المكونات النمطية ، فإنها غالبا ماتتجمع فى منتجات حسب الطلب ووفقا للمقاس .

لايمكن التقليل من دلالة هذا . الأمر ليس مجرد أن المنتجات هذه الأيام أصبحت أكثر تنوعا ، بل إن عملية الانتاج ذاتها قد تغيرت ، المداخن ، رمز العصر الصناعى ، ومجتمع خطوط التجميع داخل المصانع ، تصبح يوما بعد يوم من المخلفات التى عفا عليها الدهر . إننا مازلنا نفكر فى أنفسنا باعتبارنا مجتمع انتاج على نطاق واسع . ومع ذلك ففى القطاعات المتطورة فى الاقتصاد ، أصبح هذا من الأساليب العتيقة . وفكرة أنه من الممكن الابقاء على المنافسة التى تحققها صناعات الانتاج على نطاق واسع . تقوم بشكل خاطىء على جهل بما يحدث فعلا داخل المصانع .

التكنولوجيا الحديثة تجعل التنوع فى انتاج السلع بنفس رخص انتاجها نمطيا وعلى نطاق واسع .
المصنع ينتج طرازا خاصا من القمصان ، لأن آلاته قد ضبطت على أساس ذلك الطراز . وفى إطار الحضارة الصناعية يترتب على التوقف لتعديل الطراز خسارة مادية تؤثر على السعر ، ومن ثم على أرباح المصنع . أما الآن ، وبعد الاعتماد على الكمبيوتر وعلى التحكم العددى ، فيستطيع المصنع أن ينتج أى عدد من طراز ما ، ثم يتحول فى لحظة إلى طراز آخر ، ثم يتحول مرة ثانية إلى طراز ثالث وهكذا ، بصرف النظر عن عدد القمصان الذى تنتجه الآلة فى كل مرة ، وبنفس تكلفة الانتاج النمطى القديم .. الأمر لايقتضى سوى تغذية الكمبيوتر بالمعلومات الضرورية لتنوع الانتاج وفقا للطلب .

نفس الشيء ينسحب على نظام التوزيع ، فنحن نلاحظ تشرذم السوق يوما بعد يوم ، حتى وصلنا إلى نظام التسليم الفردى القائم على الكمبيوتر المنزلى ، وطلب السلع بالتليفون . الناس يتضاعف تنوعهم ، ونتيجة لهذا تتفتت السوق إلى قطاعات صغيرة ، دائمة التغير فى حد ذاتها .

« الإنتهلاك » .. قطاع إقتصادى جديد ..

هذه حقيقة ثورية ..

لم يعد الانتاج والتوزيع على نطاق واسع من الأساليب المتطورة .. لقد أصبحت من الأساليب المتخلفة .. الاقتصاد بأكمله يتشرذم ويتنوع ويتفتت .. هذا فى حد ذاته من التغيرات العميقة التاريخية .

لايمكن أن نناقش أى موضوع فى حياتنا الحالية والقادمة دون أن ندخل فى حساباتنا مبدأ التشرذم .. وهذا المبدأ الذى يسود فى نفس الوقت الذى يسود فيه تغير أساسى فى اقتصاديات « اللا مبادلة » و « اللاسوق » .

إننا نشهد تزايداً فى الانتاج من أجل الاستهلاك ، وليس من أجل المبادلة .

إن اقتصاد الموجة الثالثة لايندفع فقط نحو التشرذم والتنوع ، بل يحمل فى طياته قطاعا ناميا له دلالته ، يقوم على الانتاج من أجل الاستهلاك الشخصى .. وهو قطاع يتزايد حجمه بسرعة شديدة مغيرا جوهر البنية الاقتصادية .

إنه قطاع المنتج المستهلك لانتاجه ، أو قطاع « المنتهلك » (وهى كلمة مهجنة ركبها توفلر من كلمتى المنتج والمستهلك) .

الفصل الثاني

ثورة المعلومات

لقد سقطت أهم دعامات اقتصاد الحضارة الصناعية ، أو الموجة الثانية ، أعنى بذلك دعامة الانتاج على نطاق واسع والاستهلاك على نطاق واسع . ويعجل بسقوط الحضارة الصناعية ، ذلك التغير الثورى الذى يجرى فى إطار العملية الإنتاجية نفسها ، أعنى بذلك أهتزاز سوق المبادلة ، التى ما نشأت إلا لتكون وسيطا بين الانتاج والاستهلاك ، ثم تطورت لتتحكم فيهما وفى حياة البشر كلها .

ذلك التغير الذى يعبر عنه « توفلر » بلفظ مهجن من ابتكاره هو « الانتهلاك » أو الانتاج من أجل الاستهلاك الشخصى وليس المبادلة أو المقايضة فى السوق .

● وماذا تقصد بالانتهلاك ؟

- تكتشف الحكومات يوما بعد يوم تزايد قطاع الأفراد الذين لايحبون دفع الضرائب ، والذين يقايضون البضائع والخدمات ، بعيدا عن رقابة أجهزة الدولة .. ويبدى الاقتصاديون انزعاجا من تفشى هذه الظاهرة ، التى تؤثر بلا ريب على كفاءة النظام الضريبى . وهم يطلقون على ذلك تعبير « الاقتصاد السرى » .

لكن شيئا آخر أكثر أهمية من هذا يحدث حاليا ، فالناس ينتجون فى واقع الأمر المزيد من البضائع والخدمات ، ليس للسوق ، أو المقايضة ، ولكن لاستخدامهم الخاص ، أى أنهم ينتجون لاستهلاكهم الشخصى .. وهو ما يطلق عليه « الانتهلاك » وهذا القطاع يغير العلاقة بين الاستهلاك والعملية الانتاجية ، واليوم تأخذ هذه الظواهر صورة التوسع الهائل فى سوق « إصنعها بنفسك » المنتج يشترى الخامات والخدمات من السوق ، لكنه يستخدمها خارج نظام المبادلة .

كما ينشغل رجال الاقتصاد المهتمون بقطاع الخدمات بلغز ما يسمى « الانتاج المشترك » الذى يساهم فيه المستهلك بجانب من

العملية الانتاجية ، وأكثر الأمثلة شيوعا على نموذج « الانتاج المشترك » محطات الوقود التى تعتمد على خدمة الذات ، حيث يقوم صاحب السيارة بعملية تفريغ الوقود فى خزان سيارته بعد وضع قطع النقود المناسبة فى الجهاز ، دون وجود عمال .. أو مثل نظام « السوبر ماركت » حين يتعامل المشترى أو المستهلك مع السلع مباشرة دون وجود بائع . فى الحالتين يشارك المستهلك بشكل ما فى العملية الانتاجية . وهكذا ، بالاضافة إلى شرذمة الكيان الاقتصادى الضخم ، يتم نوع من التحول المطرد فى وظيفتى المنتج والمستهلك .

من العضلات إلى العقل

● ولكن .. ما هى مكانة الصناعات الجديدة فى اقتصاد الموجة الثالثة التى تتحدث عنها ، والتى تقول إنها تجتاح العالم بأكمله ؟

ـ نحن نقوم فعلا باحلال الصناعات الجديدة للموجة الثالثة ، فى مكان صناعات الانتاج على نطاق واسع ، والخاصة بالموجة الثانية والمسألة أكثر من مجرد إبدال بسيط ، الصناعات الجديدة تختلف جذريا عن القديمة ..

● لكن لماذا لاننظر إلى صناعات هذه الموجة الثالثة باعتبارها المزيد مما هو موجود . أو امتدادا جديدا للأشكال القديمة من الانتاج الصناعى ؟

ـ لأنها تختلف فى آلاف الوجوه .. نوع المنتج ، نوع الناس الذين يدخلون فى انتاجه ، هياكلهم التنظيمية . أساليب حياتهم . ثقافتهم ، فهم يمثلون على المستوى الأكثر عمقا ـ مستوى المعرفة ـ انفصالا أساسيا عن الماضى ..

صناعات الموجة الثانية تستخدم تكنولوجيات القوى الفظة : تثقب ، تطرق ، تثنى ، تسحب ، تقطع ، تسلخ .. تحضر المواد الخام لتصنع منها الأشكال التى نريدها أو نحتاج إليها . هذه العمليات الصناعية الأساسية هى المناظر للنشاط الحسى الحركى عند

الإنسان .. حتى إنسان الكهف كان يقطع ويشق .

باختصار ، الآلات التى خلقها المجتمع الصناعى تعبير امتدادا لقوة العضلات وإرهاق الحواس عند الإنسان .

لكن صناعات الموجة الثالثة تعمل على مستوى أكثر عمقا .. بدلا من أن تطرق شيئا ما على صورة معينة . تعود إلى المادة نفسها وتبرمجها بحيث تعطى الشكل المطلوب . وهى قادرة على خلق مواد جديدة تماما .. هى تعمل على المستوى الجزيئى . وما هو دون المستوى الجزيئى .. بدلا من أن تخلق آلات محدودة العقل . تقطع وتطرق وتثقب الأشياء بشكل متكرر ، تبتكر صناعات الموجة الثالثة أدوات ذات ذكاء تستطيع أن تتكيف بسرعة مع الظروف المتغيرة . وتعطى منتجات شخصية . تتم وفقا للطلب . وبطريقة اقتصادية .

إذا ما أجرينا هنا تشبيها بالجهود البشرية . فنحن أقرب إلى العقل من العضلات . وبدلا من جهد تضخيم القوى العضلية الفظة . تعمد التكنولوجيا الجديدة إلى تضخيم القوة العقلية للانسان .

والنتيجة .. هى أن الصناعات الجديدة للموجة الثالثة لها من الآثار ما يتضمن تغيرات حادة من النواحى الاجتماعية والتنظيمية والثقافية والبيئية .. أنها لا تشبه صناعات الانتاج على نطاق واسع . إلا بمقدار ما تشبه المطرقة أشعة الليزر !.

الصناعات الجديدة .. والاتجاه نحو الأقليمية

● وما هى فى رأيك هذه الصناعات الجديدة ؟

- صناعات الموجة الثالثة تتراوح بين الألكترونيات والليزر والبصريات والاتصال والإعلام وبين هندسة الچينات والطاقة البديلة وعلوم المحيط وصناعات الفضاء والهندسة البيئية .. فكلها تعكس القفزة الكمية فى المعرفة البشرية ، التى لاتجد لها الآن ترجمة فى اقتصادياتنا الحالية .

عندما نربط بين هذه التكنولوجيات الجديدة ، وبين التشرذم فى نطاق الانتاج على نطاق واسع وفى عمليات التوزيع ، وأيضا عندما نربط بينهما وبين الأدوار المتغيرة فى الانتاج والاستهلاك ، يمكننا أن نلمح طرفا من عمق عملية إعادة البناء الشاملة التى تحدث الآن .

إن الظهور المفاجىء لهذه الصناعات الجديدة على المسرح العالمى ، فى هذه اللحظة التاريخية ، يساعد على فهم السر فى الأزمات الاقتصادية التى يمر بها الاقتصاد القومى فى كثير من الدول .

● قلت أيضا فى كتاباتك إن الاقتصاد القومى الراهن فى كثير من الدول سيصبح غير مناسب للتطبيق .. لماذا ؟

ـ فى عصر الصناعة ، حولنا المؤسسات ، ذات الكيان المحدود والتى تخدم المجتمعات المحلية ، إلى شركات أكبر فأكبر تعمل على نطاق الدولة ، لقد تحقق ذلك بفضل التكنولوجيات الصناعية ، وبفضل الأنظمة الجديدة للنقل والاتصال ، والتى ربطت بين أجزاء الدولة ، وبفضل وسائل الأعلام الجماهيرى التى سهلت التوزيع على مستوى الدولة ..

وفى عشرات السنين القريبة ، رأينا بزوغ المؤسسات متعددة الجنسيات . فمع القفزة الجديدة لقوة التكنولوجيا . ومع ظهور النظم المصرفية العالمية التى رتبت نفسها لخدمة المؤسسات العملاقة متعددة الجنسيات . ومع شيوع أجهزة الكمبيوتر ونظم الاتصال الجديدة ، تصاعدت شيئا فشيئا نسبة الانتاج العالمى لحساب السوق متعددة الجنسيات على حساب الأسواق القومية .

لكن الالتفات كان قليلا للاتجاه المضاد والذى كان فى نفس الوقت يستجمع قواه : وهو التحول من الانتاج القومى إلى ما هو أصغر من القومى .

فاليوم ، عندما ننظر إلى كيوشو فى جنوب اليابان ، أو إلى اسكتلندا ، أو كويبيك ، أو تكساس ، نرى اقتصادا إقليميا قد نما وأصبح فى حجم وتعقيد الاقتصاد القومى الذى كان سائدا منذ

عشرات قليلة من السنين ..

وبسبب الاتجاهات الثقافية والتكنولوجية ، أصبح الآن من الممكن انتاج بضائع معينة لأسواق إقليمية أو حتى محلية ، كان من الممكن أن يكون اعتمادها على الأسواق القومية ..

والاقتصاديات الأقليمية القوية التى مازالت تعمل فى إطار الاقتصاد القومى ، بدأت تتحلل من شبكة قيود القوانين واللوائح والضرائب النابعة من مصالح المستوى القومى . هذه الأقاليم ستسعى يوما بعد يوم إلى الخروج من شبكة الاقتصاد القومى وتطالب باستقلالها كما أن هذه الاقتصاديات الاقليمية تصبح يوما بعد يوم اكثر تشعبا . وهذا يساعد على تفسير الأقليمية المتصاعدة على الصعيد السياسى . وعلى الصعيد الثقافى من الشعر إلى المطبخ ..

نظـــرية القيـــمة .. فى المعلومات بدلا من العمل

● لقد عرفت الاقتصاد الجديد فى إطار اصطلاحات التشرذم والانتهلاك والاقليمية ، ماذا عن « مجتمع المعلومات » الذى نسمع عنه كثيرا هذه الأيام ؟

ـ بداية .. يجب أن نسأل أنفسنا : لماذا اندلعت ثورة فى المعلومات ؟ .. لم أسمع حتى الآن تفسيرا معقولا لأسبابها ..

من ناحيتى ، أرى أنها تتصل اتصالا وثيقا بتشرذم الاقتصاد القائم على النمطية والنطاق الواسع ، وارتفاع مستوى التنوع الاجتماعى ..

دون الدخول فى تفاصيل نظرية . أعتقد أنه كلما زاد تنوع وتشرذم وتفتت المجتمع النمطى الكبير ، وكلما أصبحنا أقل انخراطا فى قوالب موحدة ، زاد تنوع اقتصادياتنا ، وزادت حاجتنا إلى تبادل المعلومات ، حتى يتحقق التكامل للنظام الذى نعيش فيه .

التشرذم هو أحد الأسباب الرئيسية فى ثورة المعلومات .. ونتائج

هذا ستكون ثورية بلاشك ..

● لماذا ثورية ؟ .. هل تتصور تغيرات فى التوزيع الرئيسى للثروة والقوى نتيجة لاستخدامنا تكنولوجيات جديدة للمعلومات ؟

ـ لامناص من حدوث تحولات أساسية فى السلطة وفى توزيع الثروة ، لكن ليس بالضرورة من خلال التوجهات التى نرصدها عادة . ومبرر استخدام اصطلاح « الثورية » هو أن هناك حقائق جديدة ، تقلب اعتقاداتنا القديمة رأسا على عقب .

على سبيل المثال ، تحدث ماركس عن « نظرية القيمة فى العمل » وسيكون من المفيد أن نطور هذا إلى « نظرية القيمة فى المعلومات » ولشرح هذا أقول : إذا أخذنا فى الاعتبار عناصر الانتاج التقليدية ـ وهى الأرض والعمل ورأس المال ـ نجد أنها جميعا محدودة ـ إذا استخدمت فدانا من أرضك فى زراعة القمح ، لن يمكنك أن تستخدم نفس الفدان فى نفس الوقت ، وإذا استخدمت ما لديك من قوة عمل أو رأسمال ، لن يمكنك أيضا أن تستخدم أيا منهما فى شىء آخر فى نفس الوقت . والأكثر من هذا ، أن العمل يمكن تقسيمه وجعله متجانسا ، وإجراء تنظيم دقيق له .. لكن الأمر يختلف بالنسبة للمعلومات .

عنصر المعلومات كان دائما من مكونات الانتاج ، صناعة فأس تقتضى قدرا من المعلومات . لكن ما حدث الآن هو أن المعلومات أصبحت عاملا أكثر حسما . وهو عامل يختلف عن العوامل الأخرى . بل ويناقضها أيضا .

إذا كنت تستخدم معلومة معينة ، فأنا أستطيع أن استخدم نفس المعلومة فى نفس الوقت . وواقع الأمر . أننا إذا استخدمنا معا معلومة واحدة ، فالأرجح أننا سنخرج منها بمزيد من المعلومات .. باختصار ، نحن لا « نستهلك » المعلومات مثل المواد الأخرى فالمعلومة مورد ولود خصيب ..

هذا فى حد ذاته يبعث الارتباك فى النظريات الاقتصادية

التقليدية . وإذا لم يكن هذا كافيا تأمل تأثير المعلومات على عملية الفصل بين العمل والبيت .

ثورة المعلومات تفتح الباب إلى تحويل ملايين الوظائف من المكاتب المركزية والمصانع الكبرى إلى مراكز العمل القريبة من السكن . بل إلى البيوت .. وهنا ، نرى مرة أخرى تحولا مباشرا عن واحد من أهم الاتجاهات الأساسية للثورة الصناعية .

الكوخ الألكترونى

● هل هذا هو ما قصدت إليه باصطلاح « الكوخ الألكترونى » ؟

ـ نعم .. عندما تحدثت عن ذلك عام ١٩٨٠ . نظر الكثيرون إلى الأمر باعتباره فكرة خرقاء .

لكن ما أن مر عامان ، حتى نشرت مجلة « بزينيس ويك » تقول إن الفكرة « بدأ يصبح لها تأثير فعال فى تخطيط علاقات العمل » كما تنبأ أحد خبراء الولايات المتحدة أن ١٥ مليون وظيفة يمكن أن تتم فى البيت ، عندما نصل إلى منتصف التسعينيات .

● ولكن ألا يكون لانتقال العمل إلى البيت نواقصه الجانبية ؟ .. ألا يؤدى إلى العزلة الاجتماعية ؟

ـ وهل تعتقد حقيقة أن الغالبية العظمى من الجنس البشرى التى لم تطأ أرض المصنع أو المكتب تفتقد الاتصال البشرى والصداقة والدفء والعاطفة ؟

العكس هو الصحيح ، فالعمل فى المصنع يخرب العديد من الروابط البشرية بدلا من أن يغنيها . ما الذى يحدث الآن ؟ يعود ملايين العمال إلى بيوتهم مساء ، فيجلسون أمام أجهزة التليفزيون ، حتى يحين موعد النوم .. ألا تعكس هذه الممارسة انعزالا اجتماعيا ؟ .. لكن الذين يعملون فى بيوتهم ، سيعمدون فى الغالب إلى مغادرة بيوتهم مساء ، بمجرد انتهاء عملهم ستكون لديهم الرغبة فى لقاء الآخرين ، وفى إنشاء علاقات اجتماعية ، فى الالتقاء

بالاصدقاء فى أخذ جانب من النشاطات الاجتماعية .

فى هذا المجال ، لا أعتقد أننا سنشهد نمطا واحدا . بعض الناس سيعملون بضعة أيام فى المكتب ، وباقى الأيام فى البيت ، والبعض الآخر سيذهب إلى مقر العمل ثلاثة أسابيع كل شهر . ثم يستكمل عمله باقى الشهر ، بعيدا عن ضوضاء المكتب سعيا إلى المزيد من التركيز .. وهذه الأنماط ستتعدد وفقا لطبيعة الأعمال المختلفة .

الانتقال للمعلومات
وليـــس للبـــشر

● ما الذى يجعلك واثقا من أن هذا سيحدث ؟

- أولا : نتيجة لتصاعد تكاليف الطاقة ، والارتفاع المستمر فى أسعار النقل والمواصلات وهذا يضطر أصحاب العمل إلى رفع أجور العاملين لمواجهة هذا العبء المتزايد ، وهم إذا قاوموا هذا الارتفاع لبعض الوقت ، فلابد أنهم سيضطرون إلى المساهمة فى مواجهة تكاليف انتقال العاملين إلى مقار عملهم ، هذا إذا كانوا يحرصون على انتظام حضور العاملين .

ثانيا : يتضمن نظام النقل اليومى للعاملين من البيت إلى العمل .. وبالعكس ، يتضمن هذا النظام ، تكاليف خفية على الشركات والمؤسسات تتجسد فى دفع المزيد من الضرائب ، والتكفل بمصاريف وسائل النقل وصيانتها ، ثم الالتزام بتوفير مقاصف للعمال والموظفين ، وأماكن لخلع الملابس ، أو تدبير مواقف لسيارات العاملين .. وكل هذه التكاليف يتصاعد معدلها يوما بعد يوم .

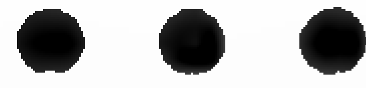
وعلى العكس من هذا تنخفض يوما بعد يوم تكلفة الاتصال ، واستخدام الكمبيوتر ومعدات الفيديو التى تحتاج إليها ، وغير ذلك من وسائل الاتصال بين البيت والعمل ، أو بين البيت ومخازن المعلومات .

وإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة انتاجية العامل فى المصنع أو

المكتب ، فلا شك أن هذه الانتاجية تنخفض عندما تحكم على ملايين العمال بالانتقال يوميا من الضواحى إلى مقر العمل . ضياع فى الوقت ، وفى الجهد البشرى ، واستهلاك لملايين البراميل من الوقود الذى لايتجدد ، ومزيد من تلوث البيئة والازدحام .

كان الانتقال اليومى حتميا عندما كان على العامل أن يتعامل مع بضائع مادية فى المصنع ، واليوم ، مع مزيد من انتشار الموجة الثالثة يقطع العديد من العمال والموظفين المسافات الطويلة يوميا ، ليتعاملوا آخر الأمر فى مقار أعمالهم . مع المعلومات والأفكار والأرقام أو البرامج والرسوم والرموز .

لاشك أنه من الأوفر جدا ، من حيث المال المبدد والطاقة المستنفدة . أن تنتقل هذه المعلومات إلى العمال فى بيوتهم ، بدلا من أن ينتقلوا هم إليها .



ولكن وفقا لهذا المفهوم الذى طرحه توفلر ، ماذا سنعنى عندما نذكر كلمة عمل ، أو كلمة بطالة . وما هو انعكاس هذا الفهم على مستقبل الدول الصناعية الرأسمالية والاشتراكية ؟

الفصل الثالث

العمل .. ماذا يعنى فى المستقبل ؟ ..

من الذى سيعمل فى المستقبل ؟ .. وماذا سيكون تعريف العمل ؟

هل نحن نندفع نحو مثالية مدانة ، يقوم فيها إثنان فى المائة من الشعب بالتحكم فى الروبوت الذى يؤدى العمل ، بينما يبقى ٩٨ فى المائة من الناس لايعملون شيئا ؟

فى أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات ، صاحب ظهور التسيير الذاتى للمصناع (اوتوميشان) العديد من التنبؤات حول البطالة الجماعية . وقالت هذه التنبؤات أن العمالة الكاملة لم تعد ممكنة (ولاحتى مرغوبة) ، ومن ثم طالب بعض الاقتصاديين بضمان حد أدنى من الدخل للجميع ، بصرف النظر عن عملهم أو بطالتهم .

لقد تبددت مخاوف الخمسينيات والستينيات ، عندما حدث تحول فى كيان القوى العاملة .. ففى عديد من البلاد . مع التناقص الشديد فى وظائف العمل بالمصانع ، انفتحت أبواب ملايين الوظائف فى الأعمال المكتبية وفى مجال الخدمات .

واليوم .. تتجدد المخاوف حول ارتفاع معدلات بطالة العمالة التكنولوجية . ومع انتشار أساليب التسيير الذاتى (أوتوميشان) فى المكاتب انتشارا سريعا ، من غير المحتمل أن يحظى قطاع العمل المكتبى بالرواج الذى لقيه من قبل .

من أين ستأتى الوظائف هذه المرة ؟

وكيف ستتغير طبيعة العمل فى المستقبل ؟

نعود إلى إجابات ألفين توفلر عن هذه الأسئلة .

● ما الذى تعنيه بكلمة العمل ؟

ـ نحن نتحدث عن البطالة ، لكننا لانعرف معنى « العمل » بالنسبة للمجتمع الجديد ، لقد تغير مفهوما العمل والبطالة اللذان كنا نعرفهما أيام الحضارة الصناعية .

أولا : أنا أحرص دائما على إجراء فصل عقلى بين العمل المدفوع أجره فى اقتصاديات المبادلة (كراتب الموظف وأجر العامل فى المصنع) . وبين العمل الذى لايستتبع أجرا فى خارج نطاق اقتصاديات المبادلة أو السوق ، ذلك لأن النشاط الأخير ، وهو ما أطلق عليه تعبير « الانتهلاك » ، هو ماتقوم به النساء أو يقوم به الرجال عند تنشئة الأبناء ، وهو مايقومون به عند إقامة (كشك) إضافى فى الحديقة ، أو عندما يزرعون بعض الخضراوات التى يحتاجون إليها فى جانب من حديقتهم ، أو عندما يحيكون ملابسهم ، أو يصلحون أدواتهم الصحية ، أو يلصقون ورق الحائط على جدران حجراتهم .. إنهم بهذا ينتجون السلع ويقدمون الخدمات .. إنهم يعملون ، ولكن ليس مقابل الحصول على أجر .

الانتهلاك ، أو الانتاج من أجل الاستهلاك الشخصى يعتبر عنصرا أساسيا فى الاقتصاد الجديد ، ولكن من أجل الحصول على إجابة محددة : دعنا نقف عند مسألة العمل مدفوع الأجر ، وهو مايعنيه معظم الناس عندما يتحدثون عن وظيفة .

العمل التعس

● وأنت تريد القول إن هذا العمل فى ذاته قد خضع لتحول كبير ؟

ـ بعكس العديد ممن يكتبون عن ذلك الموضوع ، أمضيت أنا العديد من السنين أقوم بأسوأ أعمال المصانع ، أويطلقون عليه عمل ذوى الياقات الزرقاء .. عمل يدوى متكرر أمام خطوط التجميع .. كذلك قمت بزيارات للمصانع فى أنحاء العالم ، كما قمت بزيارة أكثر المصانع والمكاتب تطورا هذه الأيام ، بهدف الدراسة .

كلنا يعرف مدى تعاسة العمل المجزأ الشائع فى الصناعات التقليدية . هذا العمل بنفس أسلوب المصنع أنتقل إلى المكاتب أيضا .. كل شخص يقوم بعمل صغير جدا متكرر دائما . دون إحساس بالعلاقة بين هذا الجزء الصغير وبين العمل الكامل الذى يدخل فى تكوينه .. دون اعتزاز بمهارة أو حرفة ، ودون وجود أية فرصة للخصوصية ، أو إمكان الخلق .

هذه الأنواع من العمل بالذات ، وهذه الأشكال من الجهد غير الإنسانى . هى التى تختفى بسرعة هذه الأيام .

● أنت تتكلم كما لو كانت هذه الأعمال قد اختفت من العالم ، وأصبحت فى ذمة التاريخ ؟!

- بالطبع لا .. فلايزال ملايين العمال ، من الواقفين أمام خطوط التجميع إلى العاملين على الآلات الكاتبة ، حتى فى أكثر الدول تقدما من الناحية التكنولوجية ، محصورين فى الوظائف البائسة التى تتطلب ذلك النوع من العمل .

لكن مفتاح التعرف على مستقبل العمل . يكمن فى إدراك أن العمل الروتينى المتكرر والمتجزىء لم يعد يتسم بالكفاءة ، لقد أصبح طرازا عتيقا فى الدول ذات التطور التكنولوجى الكبير ، لذلك ، فمثل هذه الأعمال آخذة فى الانقراض ، بصرف النظر عن موقف الشركات أو النقابات أو الحكومات .

هناك بالفعل مابدأ يحتل مكانها .. فقطاع صناعات الموجة الثالثة مع توسعه ، يفرض أنواعا مختلفة كلية من العمل ، لقد شاعت ممارسة أنواع من هذه الأعمال : كالعاملين على أجهزة (كات سكان) الطبية فى المستشفيات ، وكالذين يقومون بإصلاح الأجهزة الالكترونية المعقدة ، والذين يبتكرون أوجه الانتاج المنزلى وينسقون بين عناصره ، والذين يستخرجون معدن المنجنيز من أعمق المحيطات ، والذين يصممون الخامات ، والذين يقيمون الألواح الكهروضوئية لتحويل طاقة الشمس إلى كهرباء ، والذين يمدون كابلات الألياف الضوئية تحت الماء ... حتى أولئك الذين يعملون فى معامل الفضاء ، أو يشغلون الإذاعات المباشرة عن طريق أقمار الاتصال الصناعية ، والذين يقومون بالتدريب على استخدام أجهزة الفيديو ، وخبراء الاتصال الالكترونى .

القليل جداً من بين الذين يعملون فى هذه المجالات ، هم الذين يضطرون إلى القيام بأعمال روتينية متكررة ، أو يخضعون لتقسيم العمل الذى عرفته الحضارة الصناعية .

المشاركة فى اتخاذ القرار

● ألايجوز أن تستولى قيادات العمل الصناعى الحالية على هذه المبتكرات التكنولوجية وتتحكم فيها بحيث يخضع العاملون فيها لنفس التسلسل الوظيفى ، وبنفس التخصص فى الجزئيات ؟ .. ألا يجوز أن يعمدوا إلى حجب التكنولوجيات التى تقود إلى تحرير العامل ، وإشاعة التكنولوجيات التى تبقى على علاقات العمل الحالية ؟

– بالطبع لايحدث أن يتخلى أحد عن سلطته طواعية ... إبتداء من رئيس الوردية وحتى أعلى المسئولين التنفيذيين . ستشهد بلاشك تمسكا بالابقاء على علاقات العمل السابقة ، لكن احتمالات التطور تقف ضد هذا .

فالعمل المتجزىء المتكرر ، الذى يلغى العقل ، كان مصدرا لربح الشركات فى الصناعات التقليدية للموجة الثانية ، لكن بإمكان الكمبيوتر أن يقوم اليوم بهذه الأعمال ، بشكل أسرع وأفضل . كما أن بإمكان الروبوت أن يتكفل بالأعمال الأكثر خطورة ، الأشكال القديمة للعمل تصبح – يوما بعد يوم – أقل تحقيقا للربح ، واقل انتاجية ، ومن هنا ينشأ الدافع الطبيعى للتغيير .

منذ زمن ليس ببعيد ، كنت فى زيارة لمصنع كمبيوتر فى « سيليكون فالى » هذا المصنع لايقوم بإنتاج النبائط ، أو رقائق السليكون (تشيب) ، ذلك لأن انتاجها لايزال يخضع لنفس تنظيم صناعات الموجة الثانية ، لذلك ينكب على صناعتها صفوف من العمال ، معظمهم من النساء ، فى أسيا غالبا ، متكفلين بذلك العمل المتكرر التعس ، وبعكس هذا تتسلم الشركة التى زرتها رسائل من هذه الرقائق (تشيب) . وتصنع منها منتجات نهائية . ما رأيته فى ذلك المصنع يختلف اختلافا كليا عن غيره ، من حيث معنى العمل .

كان ما رأيته نموذجا للعمل المتشرذم غير النمطى ، المكان نظيف وهادىء ، غرفة التجميع مضيئة ومبهجة . مناضد العمل مزينة بالورد

والنباتات والصور العائلية والتحف الخاصة ... والعامل يستمع إلى الموسيقى التى يحبها أثناء عمله ، وفى الأغلب من خلال سماعات جهاز « ووكمان ستريو » . بدلا من القيام بواجب محدد صغير ، مرة تلو الأخرى ، يقوم هؤلاء العاملون بتجميع الأجهزة ، من خلال عدة أعمال مركبة ، واختبارات دقيقة بالنسبة لعدد محدود من الوحدات كل يوم ، لا أريد أن أوحى بأن عملهم كان نزهة مبهجة ، لكن الفارق بين هذا والنمط القديم للعمل الصناعى كان هائلا .

مثل هذا النوع من العمل هو الذى يأخذ فى الشيوع ، فى نفس الوقت الذى تتقلص فيه أشكال العمل النابعة من الصناعات التقليدية للموجة الثانية .

فى صناعات الموجة الثانية تسمع دائما عن التسريح وخفض الأجور وحجب المنافع والمزيد من التضييق على العامل ، أما فى صناعات الموجة الثالثة ، فيجرى الحديث عن مشاركة العاملين فى اتخاذ القرار ، وتوسيع الوظائف وإغنائها بدلا من تجزأتها .. حديث عن « الزمن المرن » بدلا من ساعات العمل الاجبارية ، وإعطاء العاملين فرصة لكى يكونوا أكثر خلاقية وابتكاراً ، كهدف أفضل من الطاعة العمياء .

عمال « عقليون »

● فى معظم الدول الرأسمالية توجد دائما فرص عمل لمثل هؤلاء العمال ذوى المستوى العقلى والتدريب المرتفع ، فرص عمل تتوفر فيها الظروف المريحة التى ذكرتها . لكن إذا تصورنا هذه الظروف متاحة لجميع العمال فهو يعنى ضرورة إجراء تغييرات فى المؤسسات والتنظيمات الاقتصادية نفسها ، وليس فقط فى العملية الانتاجية .. ويعنى إجراء نفس المستوى من التغييرات فى التعليم والمجتمع .. تحقيق هذا كله يقتضى خطوة حاسمة نحو المزيد من المساواة فى المعرفة والحقوق ... ألا ترى أن المستفيدين من الوضع الحالى

سيقاومون هذا ؟ ... وألا تظن أن المستوى الجديد الذى تتحدث عنه راجع إلى أن الصناعات ذات التكنولوجيا العالية تدر هذه الأيام أرباحا كبيرة ، تسمح بإتاحة فرصة حياة أفضل للمختصين العاملين فيها ؟

ـ بالتأكيد .. كون الصناعات ذات التكنولوچيا العالية تعتبر ـ نسبيا ـ أكثر ربحية ، يجعل الأمر أكثر سهولة على العاملين فيها ، وكون أصحاب الخبرات التكنولوجية العالية أكثر ندرة، والطلب عليهم أوسع ، مما يعطيهم فرصة تفاوض أفضل ... كل هذا صحيح ، لكنه ليس كافيا لتفسير مايحدث .

لننظر إلى الأمر من هذه الزاوية : كان العمل فى صناعات الموجة الثانية قاسيا وتعسا ، حتى عندما كانت تلك الصناعات مربحة ... بل كلما كان العمل فيها أكثر قسوة على العامل ، كانت أرباح الشركات أكبر .

وفى العديد من شركات الموجة الثالثة يحدث العكس بالضبط ، الظروف القاسية فى العمل لاتدر أرباحا على أصحاب العمل ، بل تؤدى إلى ضعف الانتاج ، لذلك فإن شركات الموجة الثالثة لاتزيد أرباحها من إرهاق موظفيها ، أنها لاتنجح بجعل العمل اكثر مشقة بل بجعله اكثر حذقا وذكاء .

ويمكننا القول بأنه فى الصناعات القديمة ، التى تعتمد الانتاج على نطاق واسع . كان المعول على العضلات . أما الصناعات المتطورة غير النمطية ، فالعنصران الحاسمان فيها هما المعلومات والخيال ... وهذا فى حد ذاته يغير كل شىء .

● بالتحديد ، كيف يختلف فى رأيك النمط الجديد للعامل عن النمط القديم ؟

ـ عامل الموجة الثالثة أكثر اعتمادا على النفس وأوسع حيلة ، وهو ليس ـ كما كان الأمر قبل ذلك ـ امتداداً للآلة .

كما كان الحرفى قبل الثورة الصناعية يمتلك « عدة » من الأدوات المادية ، فإن العامل الجديد الذى يمكن أن نطلق عليه « العامل

العقلى » له مهاراته ومعلوماته التى يمكن اعتبارها « عدة » من الأدوات العقلية .. إنه بهذا يمتلك « أدوات الانتاج » ، الأمر الذى لم يكن متاحا لعمال المصانع .

العامل الجديد أكثر استقلالا ، وأفضل علما وأكثر اعتزازا برأيه وأكثر تعودا على تنظيمات العمل المتغير المرن غير المسبوق .. إنه قوة جديدة يتضاعف تعدادها .. هذه الممارسات الجديدة ، ستفرض نظاما جديدا من القيم ينعكس على نظام التوظف وعلى السياسة الحكومية ، وعلى الاقتصاديات الماركسية ، وعلى اتحادات العمال .

ليست مدينة فاضلة

● وما هى العوامل التى تحدد إلى أى مدى نمضى نحو تحقق هذا الأسلوب فى العمل ؟ ...

هل تتصور مكانا للعمل ، يتقاسم فيه الجميع الأعمال الآلية ، وتتحقق فيه المساواة بين شركاء يديرون العمل بأنفسهم على مستوى المشروع الصناعى بأكمله ؟ أم أنك ترى مجرد تحوير طفيف لما نحن فيه . المزيد من العمال العقليين ، مع قادة عمل تتركز فى أيديهم السلطة المطلقة ، بالاضافة إلى العديد من العمال التقليديين الذين يقومون بالعمل الحقيقى ؟

ـ أنا لست طوباويا ، ولا أؤمن بالمدن الفاضلة . لا أتصور تحقق مكان عمل كامل يشارك فيه كل عامل ـ بالتساوى ـ فى سلطة القرار . وفى العمل الآلى ـ وفى العائد الاقتصادى . بل أننى لأعتبر هذا شيئا كاملا حتى لو أمكن تحققه ، مثل هذا النظام قد يجود فى ظل ظروف معينة . وقد يتحول إلى كارثة فى ظل ظروف أخرى . كما أن بعض العاملين قد يستمتع فى مثل هذا المشروع ، بينما قد يكرهه البعض الآخر .

المجتمع الجديد يجب أن يقدم الحد الأقصى من التنوع ... وظائف تم رسم دقائقها لتناسبك . ووظائف ترسم أنت دقائقها

بنفسك ، ووظائف تقتضى ، المشاركة . وأخرى لاتقتضيها . ومن ناحية أخرى ألاحظ أن معظم المثاليين والاشتراكيين يعمدون إلى التمسك بمدلولات الموجة الثانية بما فيها من نمطية عند التفكير فى هذا الموضوع .

إذا كان ماقلت به من تنوع وشرذمة وتشظى المجتمع صحيحا . فمن الأرجح أننا سنرى انفجارا فى أشكال التنظيمات الجديدة ، ذات الأنماط المتنوعة المتباينة ، إلى أبعد الحدود . وبدلا من اقتصاد القطاع الخاص أو الحكومى ، أو حتى المشترك ، قد نشهد « تعاونيات الكترونية » ، أو جماعات انتاج على أساس دينى ، أو عائلى ، بالاضافة إلى بعض شبكات النشاط الخيرى . سنشهد تنوعا متزايدا من التنظيمات ، أكثر مما يمكن أن نتصوره .

من بين هذه التنظيمات ستوجد بلا شك مشروعات الإدارة الذاتية أيضا ... ورغم أن مشروعات الإدارة الذاتية ، فوق حد معين . لم تحقق حتى الآن نجاحا كبيرا ، فإن من أهم ما يميز « العمال العقليين » إنهم - إلى حد بعيد - أكثر استعدادا لإدارة أمورهم بأنفسهم ، بالقياس للعمال اليدويين التقليديين الذين عرفتهم الصناعة ... وهذا بطبيعته يرجح نمو أشكال اقتصادية جديدة تعتمد على الإدارة الذاتية .

ماركس .. واقفا على رأسه

فى كل من الدول الرأسمالية والأشتراكية ، يتطلب نظام الانتاج الصناعى : النمطية ، أو تحقق التوحيد القياسى ، ومن بين هذا نمطية القوى العاملة ، ولقد ساعدت الاتحادات والنقابات على تحقيق النمطية بالنسبة للعاملين . أى أن النظام الصناعى - فى العالم بأكمله - يكافح التنوع والفردية .

لقد قال ماركس إن نظام المصنع فى ذاته ، يشجع نشوء جماعية الوعى . بحيث يفرض على العمال أن ينظروا إلى أنفسهم كأعضاء فى نفس الطبقة ... طبقة « الجماهير العاملة » .

لكن ما يجرى الآن هو الضد الجدلى لذلك ، إنه ـ إذا جاز التعبير ـ كارل ماركس واقفا على رأسه . لأننا فى القطاعات النامية من الاقتصاد ، لانحتاج إلى آلاف العمال الذين يقومون بعمل نمطى موحد متكرر ، إن مايحتاج إليه الحاضر والمستقبل هو عمالة ذات ذكاء وابتكار ودراية . عمالة تتمسك بفرديتها وذاتيتها .

هؤلاء العمال سيخلقون أو يخترعون الأشكال التنظيمية الخاصة بهم ، والتى تكون أكثر ترابطا ومشاركة وأقل نمطية . وإذا مادخل هؤلاء في شكل من أشكال النقابات ، فإنهم سيفرضون تغييرات أساسية فى بنية النقابة سواء من الناحية الأيديولوجية أو من حيث التطبيق .

فرصة عمل للجميع

● هل تقترح علينا أن ننشىء اقتصادا تقتصر فرصة العمل فيه على العمال الذين حظوا بتعليم أعلى وتدريب مرتفع ومهارات تناسب الوظائف الجديدة ؟ ... مافائدة ذلك إذا كان سيحرم القواعد العريضة من العمال التقليديين فرص العمل ؟

ـ إقتصاد الموجة الثالثة ، رغم أنه يقوم على قواعد ثقيلة للمعلومات ، فإنه يحتاج إلى كل المهارات البشرية ، وليس فقط على القوة العقلية الصرفة . وأعتقد أن ذلك الاقتصاد سيوفر حوافز لكل أنواع المهارات الأخرى ... مثال ذلك ، إننا سنحتاج إلى أعداد كبيرة من المختصين بالتدريب وإعادة التدريب . وسيحتاج هذا إلى مهارات فى الاتصال ومهارات بصرية وتشكيلية ودرامية . سنحتاج إلى أشخاص يتمتعون بالقدرة على الأقناع وبآخرين يتمتعون بمهارات جمالية ورياضية أو بالحساسية كمديرين ومنظمين .

والسؤال هو : كيف تجزى كل هذا التنوع من المهارات التى نحتاج إليها ؟ . الثابت أنه لاتوجد حضارة من الحضارات كافآت بالتساوى كل المهارات .. دائما ، كان على الذين يحوزون مهارات

متواضعة أن يقبلوا مكانة وأجراً أقل ، ودوراً أكثر محدودية فى المجتمع ، أو كان عليهم أن يحاربوا من أجل تغيير أسس نظام الجزاء . وأعتقد أن هذا هو الذى سيحدث فى المستقبل .

وهذا يقودنى إلى الحديث عن توفر الحد الأدنى من الأجر لجميع من يساهمون فى العملية الانتاجية ، سواء فى القطاع الحكومى أو الخاص ... ومالم تنتبه الدول ذات التكنولوجيا المتطورة إلى هذا الموضوع . وتضع له حلولا ، فالأرجح أنها ستواجه صراعات إجتماعية متفجرة .

إعانة المنتجين فقط

● لكن ألا تعتقد أن الهجوم الحالى على مجتمع الاعانات والضمانات والخدمة الاجتماعية يأخذنا بالتحديد إلى الاتجاه المضاد ؟ ..

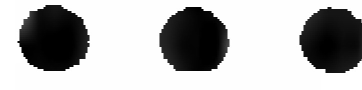
ـ أنا لم أتحدث عن خدمة إجتماعية أو إعانات ، لقد قلت أننا نحتاج إلى مكافأة كل من يساهم فى الانتاج .. وهذا أمر مختلف ... يختلف عن نظام إعانات البطالة ، ويختلف أيضا عن النظام الذى لايكافىء سوى الذين يشغلون الوظائف .. إنه أمر لايدخل فى تصنيفات اليسار أو اليمين ، أو أفكار المتحررين أو المحافظين .

أنا لا أنادى بما تفعله نظم إعانات البطالة من مكافأة غير المنتجين . لكنى أصر على أن هناك من ينتجون فعلا . ويضيفون إلى المجتمع قيمة وثراء ، لكنهم لايحظون بانتباه مفكرينا واقتصاديينا ... أنا أتكلم عن منتجين لانعرفهم ...

إنهم ينتجون سلعا وخدمات لأنفسهم . وهم بعملهم يعفون المجتمع من مهمة القيام بذلك العمل أو تقديم تلك الخدمة .. ملايين النساء فى أنحاء العالم يدخلن فى هذه الفئة .. وهن بجهدهن يقدمن قيمة فعلية إلى اقتصاديات السوق والمبادلة . كل مافى الأمر أنهن يعملن فى مجال اقتصاديات الاستخدام أو الانتفاع الذاتى ، فلا تلاحظهن ...

المنتجون الذين أتكلم عنهم هنا هم الذين أطلق عليهم التعبير المهجن « المنتهلكون » أو المنتجون المستهلكون لانتاجهم ... وهى فئة لايمكن أن نصفها بأنها غير منتجة .

وأنا أطالب بأن نعطى اهتماما مناسبا لمساهمات أفراد هذه الفئة فى العملية الانتاجية ، ثم نكافئهم على ذلك .. وأعتقد أننا لن نصل إلى حل لأزمة البطالة حتى نفعل ذلك .



ولكن كيف سيكون تعريف وشكل البطالة فى اقتصاديات المجتمع الجديد ؟ .. وكيف سنتعامل مع هذه المشكلة ؟

الفصل الرابع

البطـــــالة ..
كيف نحل أزمتها ؟

من المؤشرات الأساسية لانهيار الحضارة الصناعية ، مايواجهه الاقتصاد العالمى من أزمات غير مشبوقة .. ومن بين هذه الأزمات تفاقم البطالة مع ارتفاع معدلات التضخم ، الأمر الذى لم يحدث من قبل ، فقد كانت العلاقة بينهما علاقة عكسية ، زيادة البطالة يصاحبها انخفاض فى معدلات التضخم ، وانخفاض البطالة يصاحبه ارتفاع فى معدلات التضخم ..

هذا عن البطالة فى المجتمع الصناعى .. فماذا سيكون تعريف البطالة فى المجتمع الجديد ، مجتمع الموجة الثالثة ، وكيف سنتعامل معها ؟

.. ماذا يقول ألفين توفلر فى هذا الصدد ؟ .

● أنت تتحدث عن التحرك إلى شكل جديد للأقتصاد ، ومع ذلك أرانا فى مواجهة أقدم المشاكل .. مشكلة البطالة .. كيف نتصور أننا سنتعامل مع هذه المشكلة ؟ .

- أزمة البطالة ليست أزمة كمية .. القضية ليست ببساطة أزمة عدد الوظائف الناقصة أو المطلوبة ، إنها قضية نوع الوظائف : متى وأين وكيف نشغلها ؟ .. إنها مسألة نوعية ، الاقتصاد اليوم يحتاج إلى المزيد من المهارات المتباينة أكثر من أى وقت مضى ، كما أن المهارات ستواصل تغيرها بمعدل متسارع . ومن ثم ستزيد القوى العاملة تنوعا .

الثابت أننا لم نكن أبدا أمام نوع واحد من البطالة ، وأنت لاتستطيع أن تعالج كل الأنواع بنفس الدواء . وبإمكانى أن أحدد لك سبعة تيارات منفصلة متمايزة تصب فيما تسميه البطالة .

أولا : هناك مايمكن أن نطلق عليه « البطالة البنيوية » والتى تنشأ عن التحول من صناعات الموجة الثانية إلى صناعات الموجة الثالثة ، ويتم هذا على المستوى العالمى . فمع تداعى الصناعات التقليدية ،

أو نقلها إلى أماكن وبلاد أخرى ، مثل تايلاند والمكسيك ، يجد الآلاف أنفسهم بلا عمل .

وهذا يؤدى إلى مضاعفة ضغوط التجارة الدولية المنافسة ، وإلى إغراق السوق ، مما يقود إلى إهتزاز السوق العالمية . وهذا بدوره يخلق التيار الثانى من البطالة . النابع من الأوضاع التجارية .

كذلك مع التطور التكنولوجى يقل يوما بعد يوم عدد الأيدى العاملة المطلوبة فى عملية إنتاجية معينة . وهو مايمكن أن نسميه البطالة « التكنولوجية » . كما أن هناك نوعا من البطالة ينتج عن أسباب محلية أو إقليمية محضة ، مثل زيادة الانتاج على الحد المطلوب ، أو تحول المزاج الاستهلاكى أو ظهور المشاكل البيئية .. وهى البطالة العادية .

وهناك بطالة جزئية تكون مؤقتة . وتحدث فى فترات التحول الانتاجى . وتستمر إلى حين أن يتأهل العامل لوظيفة جديدة ، وهذه يتزايد معدلها حاليا . مع التسارع الشديد فى التغيرات .

كما أن تفجر ثورة المعلومات يتسبب فى نوع آخر من البطالة ، فمع تدفق المعلومات وتطور العمل . أصبح صعبا إعادة تشغيل العامل فى وظيفة قريبة من وظيفته الأولى . وزادت صعوبة نقل العامل من وظيفة إلى أخرى .

وأخيرا . هناك البطالة غير المقصودة ، أو غير الحتمية والتى تنتج عن حماقة السياسة الحكومية ، والتى يفترض فيها عادة أن تستهدف خفض معدل البطالة ، واعتقد أن نسبة كبيرة من البطالة (بخلاف البطالة البنيوية) تكون من هذا القبيل ، إنه المرض الذى يتسبب فيه الطبيب .

وهكذا ، عندما نقول إن التقدم التكنولوجى يسبب البطالة ، فنحن ننظر إلى جانب واحد فقط من آثاره . وننسى أنه يمكن أن يفتح الباب أمام وظائف جديدة ، بل أنه حتى البطالة نفسها ممكن أن تفتح الباب لوظائف جديدة فى مجالات الخدمة الاجتماعية والطب والشرطة ، وهى قد ترفع معدلات الأجور على مستوى صناعات معينة ، وتخلق فى نفس الوقت فرص عمل على مستوى الأجور الأقل .

البطالة البنيوية

● وأى هذه الأنماط من البطالة تعتقد أنه أكثرها أهمية ؟

ـ البطالة البنيوية ، الناشئة عن تداعى صناعات الموجة الثانية وبزوغ صناعات الموجة الثالثة .

أثناء الأزمات الاقتصادية التقليدية كان يتم إغلاق المصانع والمكاتب . ويعانى العمال والموظفون من الجوع . حتى تعود نفس المصانع والمكاتب إلى العمل .

أما اليوم فالمصانع والمكاتب المغلقة لن تعود إلى العمل ثانية ، وإذا حدث وعاد واحد منها إلى العمل ، فلن يطلب نفس الوظائف القديمة فى أغلب الأحيان .. ومن هنا تصبح وسائل العلاج القديمة غير مجدية .

● دعنا نحدد بشكل واقعى عملى ، هل سنكون قادرين يوما ما . على إعادة المتبطلين من عمال مصانع الصلب والنسيج والسيارات إلى العمل ثانية ؟ ... وهل سنجد عملا للملايين التى لم يتح لها من قبل أن تتسلم وظيفة ما ؟

ـ الحل يتمثل فى كلمتين : التقاعد أو التأهيل .

البطالة هى فى واقع الأمر تقاعد إجبارى . ولاتوجد دولة تتحمل إعالة كل المتعطلين ، كما أن المعدلات العالية من البطالة إذا لم تجد شكلا من الحلول أو نوعا من الاعانات . تخلق نوعا خطيرا من عدم الاستقرار السياسى . وهكذا ، يصبح السؤال : كيف ندفع المال اللازم لأعداد كبيرة من العمال المتقاعدين ؟

قد نرغم الشركات على إعالة فائضها من العمالة ، على حساب أرباحها ، ولكن المشكلة تكمن فى أن الصناعات التى تقوم بتوفير العمال أكثر من غيرها . هى بالتحديد الشركات التى تحقق أقل الأرباح . والتى وصل بعضها إلى حد الافلاس ، وإذا نحن أرغمناها على إعالة من توفرهم ، فلن يكون أمامها إلا رفع الأسعار مما يعنى أن الحل سيكون فى النهاية على حساب المستهلك .

يبقى أن تقوم الحكومة باعالة المتقاعدين . الأمر الذى سينعكس على الجمهور العريض على شكل ارتفاع فى الضرائب ، أى أن الفرد العادى سيتحمل الغرم أيا كان الحل ، ومع تعاظم معدلات البطالة سيكون الغرم الواقع على الفرد ثقيلا .

لهذا يكون علينا أن نلجأ إلى البديل الثانى كلما كان ذلك ممكنا ، أعنى بذلك التأهيل أو إعادة التدريب . ويخيل إلى ، من واقع مسار التطور الحالى ، أننا سنضطر إلى الدخول فى عمليات متلاحقة متتابعة من التدريب . ثم إعادة التدريب وعلى نطاق هائل .

المشكلة هى أنه عندما نتحدث عن التدريب وإعادة التدريب لوظائف صناعات الموجة الثالثة . فنحن نتحدث عما هو أكثر من مجرد مهارات مهنية بسيطة ، فالصناعات الجديدة تعمل فى إطار ثقافة جديدة . وتنميها فى نفس الوقت ، وتأتى معها بقيم جديدة ، وتدفع إلى مواقف وأساليب جديدة فى الحياة .

إلا أن محاولة عامل مصنع الصلب للقفز إلى صناعة متطورة تكنولوجيا سيكون من الصعوبة بمكان . أنها قفزة ثقافية حضارية أكثر منها مجرد تغيير فى المهارات الحرفية .

ولهذا فان التدريب . بهذا المعنى سيكون غاية فى التعقيد ، وسيكون فى الأغلب مكلفا .. إلا أنه سيكون على العموم أرخص من مجرد دفع جماهير المتعطلين إلى التقاعد الدائم .

التحول .. هو مفتاح الحل

● وماذا يمكن أن نفعل لكى نجعل ذلك التحول القادم سهلا لينا ؟ ..

ـ بأن نواجه حقيقة أنه فى المدى البعيد ، لن يتاح لكل فرد أن يحصل على وظيفة ، هذا إذا كان حديثنا عن الوظيفة الشكلية ، مدفوعة الأجر ، فى إطار اقتصاد السوق والمبادلة .

ويقودنا هذا إلى تبين حاجتنا إلى استكشاف طرق « انتهلاكية » يقوم فيها الأفراد بالانتاج لأنفسهم ، وليس من أجل البيع أو

المقايضة . وهذا يحتم علينا أن نجد وسائل تؤدى إلى زيادة جذرية فى انتاج المنتهلكين ، بتوفير الأدوات والخامات الجديدة وبتقديم المساندتين الاجتماعية والسياسة بالإضافة إلى شكل من أشكال الدعم المالى . قد تبدو مثل هذه الخطوة مثالية حاليا . لكنها ستصبح قريبا على رأس جداول الأعمال السياسية ، وللأسف نحن ـ فى أمريكا ـ لانفعل شيئا فى هذا الصدد رغم أن هناك الكثير مما يمكن عمله .

خذ مثلا حكومة كارتر فى منتصف السبعينيات ، أو حزب العمال البريطانى عندما كان فى الحكم أو الأحزاب اليسارية والليبرالية فى أى من الدولتين ، ماذا نرى ؟ .. تجاهل تام لأوضاع صناعات الموجة الثالثة الزاحفة ، وتسخير الجهد لحماية اقتصاد الموجة الثانية والإبقاء عليه .

نحن فى الولايات المتحدة الأمريكية نحاول أن نكفل شركة كريسلر ، وفى المملكة المتحدة يصل الأمر إلى ما يشبه تأميم ليلاند البريطانية ، ونفس الشيء يجرى فى فرنسا وألمانيا وغيرهما من دول أوربا الغربية . أننا نحاول أن نطمئن ونسعد مديرى ونقابات وحاملى أسهم هذه الصناعات التقليدية .. وهذا هو الغباء الاقتصادى بعينه ... والتبديد الفعلى للحياة وللجهود البشرية .

وفى مواجهة البطالة الحالية يجب ألا نتردد فى استخدام الميزانية بشكل خلاق فى تطوير بعض صناعات الموجة الثانية . بحيث لايكون ذلك بمساعدتها على مواصلة الوجود ، أو دفع مرتبات المديرين والعمال ، ولكن من أجل دفع عملية التحويل الصناعى .

الحل يكمن فى التحويل ، وليس فى الدعم والمساندة . أنا لا أتصور دفع دولار واحد لمساندة صناعة هاوية ، إلا إذا وافقت هذه الصناعة على وضع خطة تحول من انتاجها الراهن وتكنولوجياتها الراهنة إلى منتجات جديدة وتكنولوجيا جديدة ، مع استمرار عملية إعادة تدريب المديرين والقوة العاملة فيها .

المطلوب أن يتم هذا عن طريق استراتيجية يشارك فيها المسئولون عن هذه الصناعة . والنقابات ، أو الاتحادات المعنية ، والعمال والعاملون ، يضاف إلى ذلك ممثلون عن الموردين والمستهلكين والوكالات العامة التى تتصل بها هذه الصناعة .

إن تعبير « التحويل » سيكون مفتاح مفرداتنا الاقتصادية فى المستقبل القريب .

الديمقراطية التوقعية

● جميع كتاباتك تكشف عن موقف متحمس نحو التخطيط . من ناحية أنت تدعو إلى تفكير استراتيجى طويل المدى ، ومن ناحية أخرى تنادى باللامركزية والتنوع . هل يوجد تناقض فى هذا ؟

ـ لقد حاولت فى نهاية كتاب « صدمة المستقبل » أن أشرح الفرق بين التخطيط الذى يلتزم بالمنطق الصناعى ، والمركزية والتسلسل الوظيفى والبيروقراطية ، وبين أسلوب التخطيط الأكثر تفتحا والذى يتسم بالديمقراطية واللامركزية ، والذى أطلقت عليه تعبير « الديمقراطية التوقعية » . ومع تفاقم الأزمات الاقتصادية أشعر بحاجة متزايدة إلى فكرة التخطيط الاستراتيجى ، لكن لا أميل إلى الاتجاه الذى يبدو أننا نمضى فيه .

الصحافة الأمريكية حافلة بتصريحات الممولين والاقتصاديين ، وأصحاب النظريات التحررية ، والمسئولين فى الشركات متعددة الجنسيات .. كلها تنادى بفضائل التعاون بين الحكومة ورجال الأعمال . بل أن بعض المتفتحين من المديرين يطالبون باشتراك نقابات العمال فى عملية التخطيط .

رغم أن هذا يوحى ببعض التقدم فإنه يخيفنى لأنه عبارة عن نوع من التواطؤ الثلاثى .. إنه فى واقع الأمر أقرب إلى المؤسسات التى عبث فى كيانها الفاشستيون فى عشرينيات هذا القرن .

بداية أنا لا أظن أن هذا يمكن أن يتم على المستوى القومى ، فى إطار نوع الاقتصاد المركب اللانمطى الذى نسعى إليه .

ثانيا : لأنها توحي بغرض زائف ، مفاده انك إذا جمعت الشركات مع النقابات مع الحكومة معا . فإن هذا سيكون فيه تمثيل للجميع .
ثالثا : وهو الأهم ، أنه إذا ماتمكنا من تأسيس هذه القوة الثلاثية ، فإنها ستتحول إلى قوة محافظة .

إعادة النظر فى التعليم

لهذا إذا كنا نسعى إلى التخطيط ، فلابد أن يتجزأ عملنا إلى أجزاء صغيرة بحيث يدخل فى صياغة الخطة العديد من الجماعات الصغيرة ، من المستهلكين إلى الموردين إلى الوكالات العامة ، بل ربما دخل فى هذا أنواع من الفئات الاجتماعية ، مثل الجماعات العرقية ، والأخلاقية ، والحرفية والدينية ، وجماعات الدفاع عن المرأة .. إلى غير ذلك من الفئات . ويجب أن يتم التخطيط الأساسى على المستوى المحلى والفئوى والأقليمى ، وليس على المستوى القومى . كما يجب أن يجرى التخطيط على المدى البعيد ، ولايقتصر على المدى القريب ، على أن تدخل فيه كل الاعتبارات والعوامل غير الاقتصادية ، مثل البيئة وطبيعة العمل ونوعه .
أنا لاأزعم أن لدى إجابة حاضرة عن كل التساؤلات ، وأعترف أيضا بوجود نوع من التناقض على أى حال . هناك ماهو واضح لى وضوحا كاملا .. وهو أننا لانستطيع أن نعود إلى الوراء . حتى لو اقتضى ذلك حربا قوية ضد صناعات الموجة الثانية والاتحادات التجارية . نحن فى حاجة إلى أن نركز أساسا على تطوير وتنمية قطاع الموجة الثالثة ، وفى هذا قد نحتاج الى استنباط نظام ضرائبى مرن ، وغير ذلك من المساعدة على إسراع عملية التوسع فى الصناعات الجديدة ، وأن نوفر القروض للمشروعات الصغيرة فى هذه المجالات . وأن نضع الكمبيوتر الشخصى ، مع مدربين على الاستخدام ، فى كل فصل دراسى ، وكل مشروع صغير ، علينا أن نعيد النظر بشكل جذرى فى النظام التعليمى بأكمله ، وأن نزداد تشددا فى ضوابط الحفاظ على البيئة .

● أنت تتكلم عن إنهاء الصناعات القديمة ، ألا يمكن أن نحدث تحويلا فى كياناتها باستخدام التكنولوجيا الجديدة ؟ أليس هذا هو ما تحاوله الآن بعض الشركات الكبرى ؟

- تقصد الاعتماد على الروبوت فى عملها ؟ .. نعم لاشك أن بعض الشركات الذكية المتجددة تستطيع أن تجد لها مكانا وسط الصناعات الجديدة ، وأنا أعرف العديد من الشركات التى تفعل هذا حاليا ، لكن الأمر يحتاج إلى ماهو أكثر من استخدام الروبوت .

لاتوجد اصلاحات تكنولوجية بسيطة يمكن أن تحل المشكلة لأن مشكلة الصناعات الزائلة ليست مجرد مشكلة تكنولوجية .

من حيث المبدأ يمكن لمشروعات الموجة الثانية أن تحول نفسها إلى مشروعات موجة ثالثة عاملة ، عن طريق تخفيض اعتمادها على العمل اليدوى ، واستخدام المزيد من القوى العاملة العقلية . وهذا مايوفره الروبوت والتسيير الذاتى (أوتوميشان) . بمثل ما أحللنا الطاقة محل العمل اليدوى ، نحن الآن نبدأ فى إحلال المعلومات (بمعناها الواسع) محلهما معا .

لكن الشركات أو الصناعات التى تريد أن تحول نفسها بنجاح . يجب أن تعيد بناء نفسها من الناحية التنظيمية .. عليها أن تتعلم معاملة الموظفين كبشر ، وأن تقيم انتاجها وتوزيعها وفقا للطلب المتنوع المتباين للمستهلكين ، عليها أن تحقق المزيد من الانضغاط فى حجمها .. عليها أن تتحول إلى وحدات أصغر وأن تحقق المزيد من مساهمة العاملين فيها .

● ولكن ماذا عن العمال الذين سيفقدون عملهم إذا ما تم هذا ؟ وخاصة ، عندما يشيع استخدام الروبوت ؟ .. هؤلاء العمال الذين ليسوا على استعداد للدخول إلى صناعات الحضارة الجديدة مباشرة .

مع العلم بأن الشركات التى تضار أكثر من غيرها بهذا التحول ، لا تكون قادرة على مساعدة العاملين فيها ..

- إذا لم تكن لدى الشركة الموارد الكافية لهذا ، فهذا يعنى أنها

مفلسة عمليا ، ويجب أن تعامل على هذا الأساس ، وإذا لم تكن الشركة قادرة على إعادة تدريب عمالتها ، فلابد من رصد جانب من الميزانية العامة للدولة لهذا الغرض .

ولابد أن تتغير فكرتنا الكلية عن الاستثمار والتجدد لتتفق مع مقتضيات اقتصاد الموجة الثالثة .. كل دولار تضعه فى شراء آلة جديدة يجب أن يقابل عدة دولارات فى خدمة رأس المال البشرى ، فى التدريب والتعليم والتأهيل الاجتماعى وإعادة التوزيع وتوفير التكيف الثقافى . أما مسألة توزيع هذه التكلفة بين الشركات والدولة ، فهذا أمر يختلف من دولة إلى أخرى .

ويبقى لب الموضوع ، إجراء التحويل فى صناعة بعد أخرى ، مع مراعاة أن ينسحب التحويل على كفاية البشر . ولايقتصر على الآلات .

ثمانى توصيات أساسية

● هل يمكنك أن تلخص لنا النقاط الأساسية على شكل توصيات محددة ؟

أولا : مفهوم الوظيفة :

مفهوم الوظيفة الذى نتعامل على أساسه أصبح من مخلفات الماضى ، فهو من منتجات الثورة الصناعية ، ومع انقضاء عصر الصناعة ، فلابد لهذا المضمون أن يضمر أويسقط ، أو أن يعاد النظر فيه بشكل واقعى ، بحيث يتضمن العديد من النشاطات الانتاجية ، وإن كانت غير مدفوعة الأجر . يجب أن نعيد التفكير فى معنى الاصطلاحات مثل « الوظيفة » و « العمالة » و « البطالة » .

ثانيا : خطط لتحويل الصناعات :

البدء منذ الآن فى إعداد خطط التحويل بالنسبة لجميع الصناعات

المهددة والنابعة من الحضارة الصناعية ، فالصناعات « الأساسية » التى عرفناها طويلا ، لن تعود أبدا أساسية .

ثالثا : تعزيز الصناعات الجديدة :

تعزيز ورعاية الصناعات الأساسية الجديدة ، مثل صناعات الاتصال والتكنولوجيا البيولوجية وهندسة المحيطات وعلوم الفضاء والمعلومات والألكترونيات إلى آخر ذلك .

رابعا : الخدمات والمشاكل البشرية :

ابتكار الخدمات وتوسيع نطاقها . وهى مسألة أساسية وجوهرية بالنسبة لمستقبل العمالة . والتركيز على المشاكل البشرية ، مثل رعاية كبار السن والصحة ورعاية الطفل (هذا القطاع يمكن أن يتحول من معقل للبيروقراطية الحكومية ، إلى قطاع لامركزى ، يتم بالتكليف الخاص ، ويقوم على وحدات صغيرة تخدم الأسواق الصغيرة ، وهى وحدات لاتستهدف الربح وتعمل بشكل تعاونى) .

خامسا : التدريب المتواصل :

التدريب ، ثم التدريب مرة ثانية ومرة ثالثة . ويمكن أن يخلق التدريب مجالات عمالة كبيرة ، واستهلاكا كبيرا لمعدات الفيديو والكمبيوتر ، وألعاب الفيديو والأفلام .. الأمر الذى يوفر عمالة جديدة .

سادسا : نظام تعليمى جديد :

تفتيت ، وتجزئة نظام التعليم الجماهيرى . فمدارسنا اليوم مازالت تسير على نهج وأسلوب العمل فى المصنع ، وتسعى إلى تأهيل

الصغار لوظائف لم يعد لها وجود . يجب أن نراعى فى نظم التعليم الجديدة أن تكون متنوعة ، فردية لامركزية ، وإنشاء المزيد من المدارس المحلية الأصغر كيانا ، وإنجاز المزيد من التعليم فى البيوت ، والمزيد من مساهمة الأبوين ، والمزيد من الابتكار ، والإقلال من عمليات الاستظهار عن ظهر قلب (الوظائف التى تعتمد على الصم والحفظ دون فهم هى التى تختفى من حياتنا أسرع من غيرها) .

سابعا : الانتاج للاستهلاك الشخصى :

حتى مع كل ماسبق ، ستظل هناك أعداد كبيرة لاتجد وظائف لها ، لكن من الممكن أن تصبح هذه الأعداد الكبيرة منتجة ، إذا ماساعدناها على انتاج السلع والخدمات المطلوبة ، خارج نطاق سوق العمل التقليدية . وهذا يعنى تصميم منتجات جديدة وخامات جديدة ، وأدوات جديدة ، بل ومحاصيل جديدة ، يمكن أن ينتجوها لحساب أنفسهم . مع الحرص على تزويدهم ببعض التعليمات والخدمات المساندة . إن قطاع المنتهلكين ، أو المنتجين المستهلكين لانتاجهم ، يمكن أن يرفع حملا ثقيلا عن قطاع المبادلة ، بينما يوفر فى نفس الوقت حياة كريمة محتملة للملايين .

ثامنا : الحد الأدنى من الدخل المضمون :

وأخيرا ، حد أدنى من الدخل المضمون للجميع (فحتى الذين ينتجون لكى يستهلكون انتاجهم يحتاجون إلى بعض الدخل) هذا الدخل يمكن ألا يقتصر على مصادر القنوات التقليدية فقط ، يمكن أن يقوم على شكل خفض ضريبة الدخل ، أو أساليب غير مركزية وفردية .. عن طريق العائلات والكنائس والمدارس والشركات وسلطات الإدارة المحلية ، وغير ذلك من القنوات .. وهذا يساعد على الحد من أثر البيروقراطية ، ومن تركيز السلطة فى أيد قوية .

الفصل الخامس

مابعد الرأسمالية والاشتراكية

هذه الأفكار التى يطرحها ألفين توفلر تبعث الحيرة لدى المفكرين والكتاب .. كيف يمكن تصنيفه وفقا لأفكاره ، هل ينسب إلى الجناح اليمينى أم الجناح اليسارى ؟ ..

يجيب توفلر عن هذه التساؤلات قائلا : إن مايسترعى انتباهه بالدرجة الأولى ، هو ذلك الصراع الدائر بين المجتمع الصناعى وبين الحضارة الجديدة الصاعدة ، وليس الصراع داخل المجتمع الصناعى .. وهو يرى الأخير أشبه بالتنازع على مقاعد سطح عابرة محيطات أثناء غرقها .

● بعض الذين يقرءون كتبك يستنتجون أنك أقرب إلى الجناح اليمينى . والبعض الآخر يصر على أنك يسارى .. بينما تصمم أنت على أنك لست هذا أو ذاك ... كيف ؟

– اصطلاح « يمين » واصطلاح « يسار » هما من مخلفات الحقبة الصناعية التى عفا عليها الزمان . « اليمين » و « اليسار » يتصلان بمن يملك ماذا .. كيف يتم تقسيم ثروة وسلطة النظام الصناعى .. لكن الصراع الدائر بينهما اليوم أشبه بالتنازع على مقاعد سطح عابرة محيطات أثناء غرقها ! ..

المجتمع يتحرك خارجا من عصر الصناعة بسرعة كبيرة ، جعلت لافتاتنا السياسية القديمة بالية ومضللة ، كما هو الأمر الآن فى تقسيماتنا الاقتصادية .

السبب فى أن الأشياء تبدو مختلطة اليوم ، هو أن الوضع النسبى للموضوعات قد تغير ، العلاقات بين الموضوعات والجماعات أصبحت أكثر تعددا وتنوعا وآنية .

الصراع الأعظم

● لاشك أن الاستخدام الميكانيكى للافتات كاليمين واليسار ، أو

فى مجال حديثنا « الموجة الثانية » و « الموجة الثالثة » ، يمكن أن يكون مصدر خلط وتضليل . ولكى نعقل الموضوعات والعلاقات التى بينها . لابد من تصنيفها ولو بشكل مرن .

ـ بالطبع ، ويجب أيضا أن توضع فى موقعها من حيث الأولوية وترتيب الأهمية ، ولعل من بين أسباب حيرة الناس عند التفكير فى تصنيفى ، هو أن مقياس الأولوية عندى ، ليس هو مايحدث (داخل) المجتمع الصناعى ، بل مايحدث من صراع بين المجتمع الصناعى والحضارة الجديدة الصاعدة التى تتحداه . بالنسبة لهذا الصدام التاريخى ، الذى يتحقق على نطاق عالمى ، تبدو لى كل الصراعات الأخرى صغيرة .

عندنا من ناحية أولئك الذين يسعون ـ بأى ثمن ـ إلى إحياء النظام الصناعى المحتضر ، ومن ناحية أخرى أولئك الذين يقومون فعلا ببناء دعائم الحضارة التالية ، بالنسبة لى هذا هو الصراع الأعظم .

● قد يقول البعض إنك بالتركيز على هذا الصراع الأعظم ، صراع تصادم الحضارات ، تحرف الانتباه عن تقسيمات عميقة أخرى تفصل بين اليسار واليمين . بين الأغنياء والفقراء ، بين أصحاب السلطة ومعدومى السلطة .. كما يقول البعض الآخر إن موقفك يتفق أكثر مع اعتبارك « يساريا » ، لأن البؤرة الأساسية لدى اليسار ، هى الصراع بين ماهو قائم وبين مستقبل أكثر قبولا ..

ـ ربما . ولكن ماذا لو أن ذلك المستقبل يتضمن العديد من العناصر التى يمكن أن تحوز إعجاب « اليمين » التقليدى . كما هو الحال فى « الموجة الثالثة » ؟

مثال ذلك التركيز على الفردية فى مقابل الجماهيرية ، وعودة ظهور البيت كمؤسسة مركزية ، ومعارضة البيروقراطية المركزية .. هناك أناس على طرفى التصنيف التقليدى يمكن أن يشتركوا فى التحمس لهذه القيم .. ويبقى السؤال لماذا هذا الاصرار على ثنى عنق الأشياء . حتى يمكن أن ندخل فى تصنيفات سابقة زائلة .

الذى لاشك فيه . هو أن هناك صراعا ينشأ داخل أى حضارة . فى

بعض الأحيان بين الفقراء والأغنياء ، وفى أحيان أخرى بين أنواع مختلفة من صفوة تلك الحضارة ، وأنا افترض أن مثل هذه الصراعات ستتواصل فى أى مجتمع يتشكل من التغيرات الحالية .

المستقبل كخط مستقيم

لكن معظم الناس مازالوا حتى اليوم لايدركون أن القواعد الأساسية تتغير . وأن صراعات أكبر قد نشأت ، صراعات تقلل من شأن أى صراعات أخرى . وتؤثر فيها . الواجب يقتضينا أن تكون حربنا من أجل تشكيل المجتمع الآتى ، وأن ننظر إلى الأشياء ونحدد مواقفنا منها وفقا لما هو يتشكل ويتخلق وليس لما يختفى .

وهذا لايعنى بالطبع تجاهل الموضوعات المطروحة والآنية ، لكنه يعنى إعادة تقييمها فى منظور جديد ووفق اصطلاحات جديدة . يجب أن تصبح السياسة أكثر توقعية ، وأن يجرى ترتيب العلاقات وفقا للصراع الأعظم .

وكما قلت . قد يوافق العديد من اليساريين على ما أقوله بشكل عام ، إلا أن القليل جدا منهم هو الذى يكون لديه مايقوله بشأن مجتمع المستقبل . معظمهم يصور الأمر على أنه فى أساسه مزيد مما هو موجود ، المزيد من الأيديولوجية الصناعية للموجة الثانية . مع شىء من التحوير على أحسن تقدير .

نفس الشىء ينسحب على معظم اليمينيين ، وفى الحقيقة ، معظم الناس ـ بصرف النظر عن مواقفهم السياسية ـ ينظرون إلى المستقبل كامتداد خطى بسيط للحاضر .. وأعتقد أن بانتظار هؤلاء مفاجأة كبرى ، فنحن قد بلغنا نهاية عصر .

مقاومة التغيير

● نحن نتكلم عن الذين يدافعون عن النظام القديم ، الذين يريدون الإبقاء على الحضارة الصناعية .. فما هو بالضبط الذى يسعون إلى

الاحتفاظ به والإبقاء عليه . وماهى هويتهم فى رأيك ؟
- الصناعة حضارة . وهى نظام اجتماعى . إنها ليست فقط اقتصادا أو نظاما سياسيا . أنها ثقافة ونسق من المؤسسات الاجتماعية ، أنها أسلوب فى المعرفة ، وطريقة متكاملة فى الحياة . هناك أفراد فى كل مجال ، وفى كل مرفق من المرافق ، لديهم استثماراتهم المرتبطة بهذه الطريقة فى الحياة ، وهذه الاستثمارات قد تكون اقتصادية أو سياسية أو سيكولوجية أو عرقية أو ثقافية .

إنك لتجد مؤسسات اقتصادية ضخمة تدافع عن الصناعات التقليدية التى تعتمد على القوة الغاشمة . مثل الصلب والنسيج والسيارات ، وعن الأساليب التقليدية فى التصنيع على نطاق واسع . بما فى ذلك من أساليب عمل غير إنسانية . بل قد تجد أغلب نقابات العمال واتحاداتهم تدافع عن نفس هذه الصناعات والأساليب . تجد بعض الجماعات الدينية تدافع عن الأسرة النووية (التى تتكون من الوالدين وطفلين أو ثلاثة على الأكثر) والتى هى وليدة المجتمع الصناعى وحاجاته . تجد أباطرة الاتصال والاعلام ، سواء كانوا يديرون شبكات تجارية كبيرة فى الولايات المتحدة ، أو يديرون الشبكات المركزية الخاضعة للدولة فى بلاد أخرى - يحاربون من أجل الابقاء على جماهيرية الأعلام ، ولعل خير مثل على ذلك هو موقف هيئة الإذاعة البريطانية من تعميم تليفزيون الكابل فى بريطانيا .
ومن بين رجال التعليم ، ستجد الكثيرين الذين مازالوا يتغنون بفضائل أساليب التعليم النمطى على نطاق واسع . كما تجد من الساسة ورجال الأحزاب من يقاتلون من أجل الإبقاء على الكيانات السياسية البالية ، التى قد تشكل معظمها لحساب العصر الزراعى أو العصر الصناعى المبكر .
لكن هذا التحالف الكبير ، الذى يكون لاشعوريا إلى حد كبير ، للدفاع عن الماضى ، لاينتسب إلى طبقة بعينها ، أو إلى جنس أو دين معين . حتى الفقراء ومن هم خارج الصفوة ، حتى المضطهدين

والذين بلا حول ولا قوة من أعضاء النظام الاجتماعى أو الحضارة ، حتى هؤلاء قد يقاومون بضراوة إحداث أى تغيير فيما هو كائن .

النمو الثورى

● ولكن إذا كانت الحضارة الصناعية تتهاوى كما تقول ، فما الذى سيحل محلها ؟ ألا ترى أن الأمر يحتاج إلى توضيح حتى نفهم من الذى سيكون مع هذه التغيرات ، ومن الذى سيكون ضدها ؟

ـ هذا هو لب ماطرحته فى كتابى « الموجة الثالثة » ولكن لابأس من أن أقول فى إيجاز شديد ، إننا نشهد تغيرات ثورية فى المكونات الأساسية التى صنعت المجتمع الصناعى القديم وأبقت عليه . بالنسبة للطاقة ، نحن نتحول عن الاعتماد الكلى على وقود الحفريات (فحم ، غاز ، بترول) ، والصراع المتصل بهذا التحول سيستغرق بلا شك عشرات السنين . لكن أى شخص مازال يتصور نظام الطاقة عام ٢٠١٠ أو ٢٠٢٠ باعتباره نفس نظام طاقة الحفريات ، يقع فى خطأ كبير .

ثم الانتاج . السمة المحددة للانتاج الصناعى ، هو الانتاج النمطى على نطاق واسع لكن كما سبق أن قلت ، لم يعد هذا أكثر الأشكال تطورا . أننا نتحول إلى نظام انتاج قائم على المعلومات . ويتنوع إلى حد كبير جدا وفقا لطلب المستهلك . نفس الأمر ينسحب على التوزيع ، بالنسبة للبضائع والخدمات . وهذا سيكون له أثره الضخم على المجتمع والبيئة الاجتماعية ، بل وعلى تطور الشخصية الانسانية . وليس فقط على الاقتصاد .

أما بالنسبة للبيئة الاجتماعية ، فإن العائلة النووية لن تظل الشكل السائد ، فاليوم فى الولايات المتحدة ، عائلة من بين كل خمس عائلات يرعى الأطفال أحد الوالدين فقط ، ونحن نشهد أشكالا متباينة لتنظيم الأسرة تظهر هنا وهناك . مع تنوع فى الكيان والترتيبات ، وهذا شىء جديد فى التاريخ .

أما بالنسبة للشركات والمؤسسات الكبرى ، فنحن نشهد تغيرا

سريعا فى بنيتها ، ومع تعقد الموقف ، نراها تمضى مبتعدة عن الأشكال البيروقراطية التقليدية ، نحو تنظيمات أصغر ، ووحدات أكثر تنوعا ، داخل إطارات مترابطة .

وعن الاتصال .. لقد سبق أن أشرت إلى اللانمطية ، وانقضاء عصر الإعلام الجماهيرى ، وظهور الكابل والكاسيت والكمبيوتر الشخصى والفيديو ، والقمر الصناعى للاتصالات . ومئات غير هذا من وسائل نقل الأخبار والمعلومات وتبادلها .

كل هذا يحدث بسرعة دافعا بعضه البعض . وحتى إذا تحدثنا عن الثقافة وأساليب المعرفة ، وماهو أبعد من المستويات ، لوجدنا معدلات تغيير شبيهة ، ونموا ثوريا ..

عندما أتكلم عن « الموجة الثالثة » . فأنا أعنى كل هذه الأشياء وغيرها ... وليس فقط إعادة البناء الاقتصادى .

ولنتأمل معا .. هذه الأشياء هل تحدث من جراء نفسها ؟ ... إنها تحدث لأن الناس تعمل من أجل حدوثها ، ولأن تشكيلا كاملا من الجماعات الجديدة ، ينبت يوما بعد يوم ، ترتبط مصالحها الاقتصادية والثقافية والنفسية والسياسية بأساليب أو بمجتمع الموجة الثالثة الصاعدة .

سنشهد صراعا ناميا بين أولئك الذين يحاربون من أجل أن يتحقق هذا التغيير فى كل مجال ، من الصناعة إلى التعليم إلى شكل الأسرة ، وبين أولئك الذين لايزالو ن يرتبطون ارتباطا كاملا بطريقة الحياة الصناعية التى لاتحتمل .

وهنا ، نقول مرة أخرى ، لاترتبط هذه التشكيلات الأساسية النامية بطبقة أو بجنس أوبدين ، ولاترتبط بيمين أو يسار ، أو بأى من الأحزاب السياسية القائمة .

الحنين المرضى إلى الماضى

● إذن فأنت ترى أن الصراع الأساسى الذى يجرى فى زمننا هو عبارة عن معركة بين العقلية الصناعية ـ أو مجتمع الموجة الثانية ـ وما تسميه حضارة الموجة الثالثة . أين تضع إذن الحركات النامية

مثل حركات الحفاظ على البيئة ، « الحزب الأخضر » فى ألمانيا ، والجمعيات المعادية للنشاط النووى فى أنحاء العالم ؟

- هناك أناس يدافعون عن المؤسسات والممارسات المختلفة للنظام الصناعى . وهناك أناس يهاجمون المجتمع الصناعى ، أنهم يهاجمون المركزية وعشق الضخامة والنمطية المحبطة ، إلى آخر ذلك ... لكن أولئك الذين يهاجمون الحضارة الصناعية ينقسمون فيما بينهم .

بعض الذين يهاجمون النظام الصناعى المتداعى ، لايهتمون بالمستقبل بالمرة ، والبديل الوحيد الذى يفكرون فيه هو الارتداد إلى نوع غامض من الماضى ، إنهم الذين يؤرقهم الحنين إلى الأيام الخالية . إنهم الذين يطمعون فى إدارة عجلة التاريخ إلى الوراء ، إنهم ليسوا من أبناء الموجة الثالثة . إنهم يمجدون الماضى متمثلا فى مجتمعات الموجة الأولى . وهؤلاء يمكن أن يشكلوا تهديدا لحياتنا لايقل عن تهديد نماذج الموجة الثانية خطورة .

يتصور هؤلاء أن التكنولوجيا والصناعة مترادفان ، إنهم يعجزون عن تصور تكنولوجيا إنسانية ، إنهم لايفرقون بين مصانع الصلب وبين الكمبيوتر ولابين الإعلام الجماهيرى وآلات زيروكس . إنهم يكرهون كل التكنولوجيا كراهية التحريم ، إنهم يكرهون المدن ، لكنهم يفشلون فى إدراك أن وسائل الاتصال الحديثة يمكن أن تساعدنا فى الاتجاه إلى خارج المدن . إنهم يكرهون عشق الحضارة الصناعية لكل ماهو ضخم وعملاق ، فيندفعون آليا إلى كل ماهو صغير .

إنهم ينسون أن معظم البشر الذين عاشوا فى تجمعات صغيرة ريفية زراعية فى عصر ماقبل التكنولوجيا ، كانوا فى حقيقة الأمر ضحايا تعساء للمظالم المحلية ، بلا ديمقراطية ، ولا حقوق أمام القضاء ، وبلا حقوق شخصية وبلا صلة بالعالم الخارجى ، وبلا أدنى صوت فى كل مايتصل بتحديد مصيرهم .

إذا ماكنا نطمع فى مستقبل ديمقراطى . يجب أن يكون هذا التمييز واضحا للغاية . حقيقة إننى أشرت إلى أن بعض أشكال حضارة

الموجة الثالثة تشبه فى بعض الوجوه الاجتماعية والاقتصادية أشكالا كانت معروفة خلال الموجة الأولى ، أو الحضارة الزراعية ، لكنى أؤكد هنا إنها ستكون على أعلى المستويات التكنولوجية .

وأحب أن أشير هنا إلى أننى أرفض الإدانة الكاملة لكل أشكال التطور الاقتصادى ، وللتكنولوجيا ، ولكل ماهو ضخم أو مركزى .. فهذا موقف ساذج ورومانتيكى ... وأنا أتعشم أن يتوقف أعضاء الحزب الأخضر وغيرهم من جماعات الحفاظ على البيئة والجماعات التى تهاجم نمطية المجتمع الصناعى .. أتعشم أن يتوقفوا عن إظهار يأسهم من كل ماهو موجود وتمجيدهم لكل ماكان ... لذلك الماضى غير الديمقراطى .

أرجو هذا لأن هذه الجماعات التى تضع التكنولوجيا والمشروعات النووية ، والكمبيوتر الشخصى ومصانع الصلب كلها فى سلة واحدة ، وتنظر إليها كأنها نفس الشىء ، هذه الجماعات بدعوتها إلى استعادة ماضى الحضارة الزراعية ، توفر المزيد من الذخيرة لقوات الموجة الثانية ، تستخدمها فى إعاقة تحركنا نحو الموجة الثالثة .

● خلال كتاباتك تحدثت عن تفجر تاريخى .. وقلت إن الماركسيين كانوا مخطئين فى اعتبارهم أن أزمات اليوم هى مؤشر للأزمة العامة للرأسمالية ، لكنك لم تكتب كثيرا عن الرأسمالية والاشتراكية . هل تظن أن الرأسمالية والاشتراكية . بصورتهما الحالية ، يمكن أن يكتب لهما البقاء عند انقضاء القرن العشرين ؟

- لا ... فلكل منهما تناقضاتها الخاصة القاتلة . إن مد التغيير يفقدهما مبرر وجودهما ، ذلك لأن الرأسمالية المعاصرة والأشتراكية المعاصرة هما نتاج الثورة الصناعية .

رغم الاختلافات الحادة بين النظامين . فقد أضفت عليهما الحضارة الصناعية خصائص مشتركة طاغية ، وبصفة خاصة تلك السمات المتصلة بالبنية الأساسية فى كل منهما . وهى التى تواجه اليوم تحديا مصيريا من دفع الموجة الثالثة .

فى هذا الصدد يكفى أن نراجع وضع النظم الرأسمالية والاشتراكية بالنسبة لمواصفات الموجة الثالثة التى أوردناها ، القوى الصناعية للدول الرأسمالية والاشتراكية تعتمد على وقود الحفريات الذى لايتجدد ، وتعتمد على النطاق الواسع النمطى فى الانتاج والتوزيع والتعليم والاعلام والترفيه . وهى جميعا تتخذ الأسرة النووية نموذجا أساسيا للمجتمع ، وتقيم مزيدا من المدن الضخمة ، وتعتمد على نظام الدولة القومية ، دول كل من النظامين تفرض نفس مبادىء النمطية والتوحيد القياسى ، والتزامن ، والمركزية ، والسعى إلى الضخامة والنهايات القصوى ... إلى آخر ذلك .

هذه السمات الأساسية المشتركة تكون أكثر أهمية من الفروق التى تعمد إلى التركيز عليها عادة .

● هل يعنى هذا أنك تسوى بين النظامين ؟

- لا ... كما أنى لست مع أولئك الذين يتصورون إمكان حل التناقض بين النظامين بتحولات أو تحويرات يقوم بها الاتحاد السوفييتى أو الولايات المتحدة الأمريكية .. مثل هذا التفكير ينبع من عقائد الموجة الثانية والتى تقول إن المجتمعات تصبح أكثر تشابها يوما بعد يوم .

ومع هذا ، فإنى أتصور أولادنا أو أحفادنا وهم يلقون نظرة على تاريخ الصراع المحتدم الكبير على مستوى العالم بين الرأسمالية والاشتراكية ... نظرة فيها دهشة وتعجب .. نفس النظرة التى ننظر بها الآن إلى الصراعات والمعارك التى قامت وخمدت بدون منطق كبير فى مرحلة من مراحل التاريخ .

باختصار .. الرأسمالية والاشتراكية . وما بينهما من توتر ، كل هذا من نتاج العصر الصناعى ، عندما ينقضى هذا العصر ، فالأرجح أنهما سيختفيان باختفائه ...

إلا أن الحديث عن الرأسمالية والاشتراكية لايقف عند هذا الحد ، كما أن الأشكال السياسية لمجتمع مابعد الصناعة مازالت غير واضحة .

الفصل السادس

فشل التخطيط المركزى

إذا كان الحديث يدور حول النظامين الرأسمالى والاشتراكى ، ومستقبل وجودهما فى مجتمع مابعد الصناعة .. وإذا كانت المبادىء الأساسية التى تحكم النظامين واحدة ، ونابعة من العقيدة العليا للحضارة الصناعية ، فكيف إذن يتناقض كل من النظامين مع الحضارة القادمة ... حضارة الموجة الثالثة ؟ ... يواصل ألفين توفلر إجاباته عن هذه التساؤلات .

● لماذا تصر بهذه القوة على أن الرأسمالية والأشتراكية هما نتاج الموجة الثانية ؟ علما بأن بداياتهما يمكن اقتفاء آثارها فى زمن سابق للثورة الصناعية ؟

ـ نعم .. هناك دعوات ذات صبغة اشتراكية على مدى التاريخ ، لكن مانطلق عليه اليوم رأسمالية أو أشتراكية ، يتحدد من واقع الموقف إزاء السوق .. هذه السوق لعبت دورا صغيرا نسبيا فى تاريخ البشرية فيما قبل الثورة الصناعية .

الحقيقة هى أن أيا من هاتين النظريتين لم تعد صالحة للتطبيق اليوم ، نظرية السوق الحرة فى الرأسمالية ، والنظرية الأشتراكية . نتبين هذا ، لو نسينا للحظة واحدة فقط المصطلحات ، ونظرنا بعمق وواقعية إلى العالم من حولنا .

فى الولايات المتحدة وبريطانيا نجد حكومتين تلتزمان بسياسة العملة وسوق المال والاقتصاد الحر .. وهما بهذا لم تفعلا أكثر من أن تورطتا فى مزيد من الاضطراب الاقتصادى ، وفى باريس حكومة تزعم لنفسها أنها أشتراكية ، فتقوم بإصلاحات تبث الرعب فى واشنطن ولندن ، فماذا حدث ؟ .. المزيد من سوء الأوضاع الاقتصادية ..

وماذا عن أوربا الشرقية ؟ إفلاس ، أما الاتحاد السوفييتى فيعانى

من كارثة قادمة . بعد أكثر من ٦٥ سنة من قيام الثورة تعترف جريدة البرافدا بنقص فى مواد البناء ، وفى الكهرباء والأنسجة الصناعية ، وفى اللحم واللبن والدجاج .

التنوع وتسارع التغيير

● دعنا نعود إلى سؤالنا الأصلى : هل فى استطاعة الرأسمالية والاشتراكية بشكليهما الحاليين أن يواصلا الوجود خلال الموجة الثالثة ؟ لقد قلت إن لكل منهما تناقضاته ، والمفرض أن الاشتراكية تسعى إلى حل تناقضات الرأسمالية . فما هو رأيك فى تناقضات الاشتراكية فى صورتها الحالية ؟

ـ التخطيط المركزى الذى تسيطر عليه صفوة قليلة لايمكن أن يصلح لمجتمع الموجة الثالثة ، لقد أفرزت الثورة الصناعية مجتمع الجماهير الضخمة النمطية ، وشجعت كل ضروب النمطية من اجتماعية إلى سياسية أو ثقافية . لقد وضعت الحضارة الصناعية توحيدا قياسيا للانتاج واللغة والمسكن والتعليم والمناهج .. وفى كل أساليب الحياة ، هذا هو مايساعد المخطط المركزى فى مهمته ، فالمجتمع الذى يضعف فيه التنوع يكون من السهل نسبيا أن تتم قيادته من أعلى .

ومع ذلك ، ففى مثل ذلك النظام الذى يعتبر نسبيا غير مركب ، ثبت أن التخطيط المركزى للوحدات الكبيرة . كالدول ، يقود إلى فشل ذريع ، كان من الممكن أن ينجح هذا فى الصين القديمة ، أو فى مصر الفرعونية ، لكن حتى أكثر الاقتصاديات الصناعية تجانسا ، تكون أكثر تركيبا من أن يجرى التحكم فيها من أعلى إلى أسفل .

والآن ، دعنا نتصور نوعا من المجتمعات يختلف اختلافا جذريا عن ذلك ، يتميز بالتنوع الشديد وعدم الخضوع للتوحيد القياسى . تنفرط فيه الجماهير الضخمة إلى مجموعات وأفراد . ويتم فيه التغيير بمعدلات سريعة .. دعنا نتصوره وقد استبدل فيه بنظام الانتاج على

نطاق واسع . انتاج يتضاعف فيه التنوع وفقا لطلب المستهلك ، على أساس من التكنولوجيات المتطورة .. نتصور عالما ليس به سوى القليل من المداخن . وتختفى فيه ظاهرة ملايين العمال الذين يؤدون عملا متكررا . الذين يرتدون نفس الزى وينهضون من فراشهم فى نفس الوقت ، ويسهل أن يحل بعضهم محل البعض الآخر .

دعنا نتصور اختفاء العديد من محال السوبر ماركت ، ليحل محلها نظام توزيع جديد قائم على التسويق المتفتت المتشرذم ، وعلى الذوق الشخصى ، ونتصور انهيار وسائل الاعلام الجماهيرى وظهور أقمار الاتصال الصناعية التى توفر الاستقبال المباشر ،وظهور الكابل والكاسيت ، والدوائر اللاسلكية الصغيرة . واعلام الجماهير المحدودة لكل فئة أو مجموعة من المجتمع ، وسيل المعلومات الذى يتدفق من كل مكان من العالم ..

دعنا نتصور أشكالا أخرى غير بنوك المعلومات المركزية ، وغير الكمبيوتر المركزى الضخم .. لنتصور الكمبيوتر الشخصى فى كل مطبخ ومكتب ومدرسة . وكلها ترتبط بشبكات معلومات دائمة التغير ..

هذا هو بعض مانمضى إليه ، وهو فى حد ذاته كابوس بالنسبة للمخطط المركزى ، هذا النوع من المجتمع يصبح التحكم فيه من أعلى أكثر صعوبة ، كما أن « عبء اتخاذ القرار » الذى يلقى على عاتق المخططين يصبح غير ممكن ..

إليك مفتاح الموقف .. كلما زاد التنوع والتباين فى أى مجتمع ، زاد تنوع الظروف المحلية ، وتسارعت التغيرات ، وتضاعفت التنوعات من لحظة إلى أخرى . الموجة الثالثة تأتى معها بهاتين العمليتين احداث التنوع ، مع التسارع فى التغيير .

بحر الأكاذيب

وهذا يرغم المخططين المركزيين على التعامل مع الاتجاهات العريضة والخطوط الرئيسية فقط ، ومن ثم الوصول إلى قرارات تعميمية عامة ، وذلك لأنهم يصبحون غير قادرين على إصدار قرارات

مرنة تناسب الطلب المتعدد المتغاير ، والظروف المحلية أو قصيرة الأجل . إنهم لايستطيعون معرفة مايجرى فى كل موقع بالتحديد ، وإذا حاولوا ذلك ، اكتشفوا استحالته .

وأنت لاتستطيع أن تتخذ قرارا جيدا دون أن يكون لديك مؤشرات دائمة بنتائج ذلك القرار . ولتحقيق ذلك تحتاج إلى أشخاص تضعهم فى كل مكان ، وحتى أطراف المجال الذى يؤثر فيه القرار ، لكى ينقلوا إليك مايجرى . تحتاج إلى هذه المعلومات ، وتحتاج إليها فى وقتها المناسب ... تحتاج إلى معلومات عن الأخطاء المتصلة بقرارك ، وهو مايطلق عليه « التغذية المرتدة السلبية » .

لكن هذا ، للأسف ، هو آخر ماتحب أن تسمعه كمخطط مركزى ، فأنت تخشى دائما أن تتلقى اللوم أو تتعرض للمحاسبة من الرؤساء ، ونتيجة لهذا يحرص الأشخاص الذين فى القواعد والذين يجمعون لك الحقائق على إخفاء عناصر الفشل أو تخفيفها ... بل قد يعمدون ببساطة إلى تقديم معلومات كاذبة ، أو يرفعون إليك المعلومات الحقيقية فى وقت متأخر جدا يصعب معه الاستفادة منها ، وهم يفعلون ذلك لأنهم لايشاركون فى صنع القرار ، ومن ثم فهم لايتحملون جانبا من مسئوليته ، فيصبح الأفضل أن يقولوا لك ماتحب أن تسمعه ، ويكون الأفضل من هذا أن يرفعوا إليك أقل القليل من الحقائق .

لهذا فإن واضع التخطيط المركزى فى نظام لايقوم على المشاركة فى وضع القرار ، يصبح غارقا فى بحر من الأكاذيب والأوهام والمعلومات القديمة والخاطئة وهكذا ، تتحطم اقتصاديات بأكملها نتيجة لذلك .

القرارات الصعبة

● من المعروف أن العديد من الحركات اليسارية المتحررة لاتبدى هذه الأيام قبولا للتخطيط المركزى التكنوقراطى .. فما الذى يمنع الضغوط الداخلية من أسفل ، أن ترغم السياسات الاقتصادية

المخططة مركزيا ، على أن تنفتح أكثر على قنوات الاتصال الديمقراطية .. على العمال والمستهلكين والأقليات العرقية .. وعلى المرأة وعناصر المجتمع بشكل عام ؟ .. ألم تحاول « تضامن » أن تدفع بولندا فى هذا الاتجاه بل وربما إلى ماهو أبعد نحو نظام للتخطيط يتضمن المزيد من المشاركة ، لايتم فيه الاتصال عبر الرئاسة المركزية فقط ، بل يجرى من طرف إلى آخر ، خلال قنوات جانبية ؟

- هذا ماكان يسعى إليه بعض عناصر حركة « تضامن » لكن الثابت أن البعض الآخر لم يكن يسعى إلى ذلك .

يمكننا تصور حدوث ضغوط من أسفل تفرض تغيرات فى آلية التخطيط المركزى بالنسبة لدول أوربا الشرقية أو الاتحاد السوفييتى . لكن الأهم من ذلك هو أنه إذا بقيت هذه الدول أساسا من الدول الصناعية أو دول الموجة الثانية ، فستظل الضغوط نحو المركزية تعمل عملها بقوة ، ويمكننى أن أتصور حركة « تضامن » قد أحلت محل النظام العسكرى نظاما ديمقراطيا .. لكن هذا النظام الجديد سيواصل محاولة تخطيط اقتصاد البلاد من أعلى إلى أسفل .

نقول باختصار ، لايهمنا مدى ذكاء المخططين وعدد الدكاترة المشاركين فى وضع الخطة ، أو مدى قدرتهم على التحاور وعقد الجلسات أو قدرة الكمبيوتر الذى يعتمدون عليه فى عملهم .. فعند نقطة معينة ، مع تضاعف التنوع فى كيانات المجتمع ، مع التغير السريع فى البيئة التى نعيش فيها ، سيجدون أنفسهم فى حالة عجز .

لقد أصبح على الأشخاص الذين فى مركز المسئولية أن يتخذوا العديد من القرارات حول العديد جدا من الأشياء . التى يستحيل عليهم فهمها .

توزيع عبء القرار

● إذن فأنت تقول إنه كلما جاءت الموجة الثالثة بالمزيد من التنوع

فى النظامين الاقتصادى والاجتماعى ، أصبح من الأصعب على أى شخص أن يدير النظام مركزيا .

ـ تماما .. الحل الحقيقى ليس فقط فى فتح قنوات على المواطنين من مستهلكين وعمال وغيرهم ، تستغل فى تغذية صانعى القرار بالمعلومات .. الحل الحقيقى هو إعادة توزيع عبء القرار نفسه ، بحيث ينتقل المزيد من التصرف والاختيار وسلطة اتخاذ قرارات معينة ، من أعلى إلى أسفل .

ولايبدو لى أن مثل هذا يمكن أن يتم ببساطة فى الاتحاد السوفييتى دون صراع مرير من الصفوة ونخبة صانعى القرار المركزى .

إن الموجة الثالثة تهدد بإثارة هذه الأزمة فى جميع الدول التى على النسق السوفييتى ..

إنها تهدد باكتساح المخططين ، أمام اندفاع تيار المعلومات المتجددة .

مضمون جديد للملكية

● وماذا عن الرأسمالية ؟ إن أوضح السمات الأساسية للرأسمالية ، هى أن عددا صغيرا جدا من الناس يمتلكون قدرا عظيما من أدوات الانتاج . هل يمكن أن يستمر هذا ؟ .. وإذا كان الجواب نفيا ، فما هى أكثر تناقضات الرأسمالية فداحة ؟

ـ يكمن التناقض فى صميم قلب الرأسمالية ، فى مضمون الملكية الخاصة . اليساريون تستولى عليهم بقوة فكرة الملكية والتملك ، مما يعميهم غالبا عن حقيقة الأمر .. إن مضمون الملكية نفسه ينقلب رأسا على عقب .

إن الذين يسيطرون اليوم على المجتمعات الرأسمالية المتطورة ، ليسوا بالضرورة هم الذين يملكون أدوات الانتاج ، يوما بعد يوم ، تتضح حقيقة أن الذين يسيطرون يفعلون ذلك لأنهم يتحكمون فى

« أدوات التكامل » وليس أدوات الانتاج ، وأعنى بذلك طبقة المديرين . ففى الولايات المتحدة الأمريكية ، التى يفترض أنها قلب العالم الرأسمالى ، أخذت الملكية تفقد دلالتها على مدى حياة جيل بأكمله .

القرارات الرئيسية حول مستقبل مجتمعنا فى الولايات المتحدة الأمريكية صنعت وتصنع بواسطة مديرين ، فى الغالب لايملكون رأس المال أو الآلات . كما تصنع القرارات المصيرية أيضا بواسطة موظفى الحكومة البيروقراطيين الذين يكون من اختصاصهم أن يقرروا إذا ماكان استثمار ما سيتجه إلى هذه المنطقة أو تلك ، إذا كان من الأفضل الاعتماد على هذه التكنولوجيا أو تلك ، وبعض قراراتهم تكون أهم بكثير من قرارات حاملى الأسهم .

هناك بالطبع بعض الاستثناءات .. شركات كبيرة مازالت تخضع لسيطرة الأسرة أو تلك التى يمارس فيها بالفعل بعض حملة الأسهم نفوذا . لكن إذا مانظرنا إلى المؤسسات الكبرى ، والتى يدور الاقتصاد حول محورها ، فسنرى انخفاضا نسبيا فى سيطرة أصحاب رأس المال .

وإذا أردنا أن نفهم كيف سيتم توزيع السلطة فى المستقبل ، فسنحتاج إلى أن ننظر بشكل أدق لكى نحدد من الذى يرعى الملكية ، وكيف تعمل الموجة الثالثة على تغيير ذلك .

رموز الملكية

● مع اعترافنا بهذا كله ، أليس هدف أصحاب رأس المال أو المساهمين أو المديرين هو تحقيق أعلى ربح ، والحفاظ على الوضع الاقتصادى للمؤسسة ؟ .. وحتى عندما تتعارض مصالح أصحاب رأس المال مع المديرين ، ألا يقود هذا إلى قرارات مضادة لصالح المجتمع ، ولحساب أصحاب رأس المال ؟

ـ لاشك أن سعر المنتج الذى تقدمه الشركة يعمل كمؤشر فى

صنع القرار . ولايعقل أن يقوم موظف أو مدير بإتخاذ قرارات تؤدى إلى خسارة رأس المال ، أو إضعاف موقف الشركة فى السوق .

لكن فى الشركات الكبيرة جدا ، حيث تتعدد النشاطات وتتنوع ، تنشغل الشركة بعدة عمليات بحيث لاتؤثر أى من هذه العمليات بمفردها على أرباح الشركة بشكل ملموس .

فقرار انتاج نوع جديد من الصابون أو القمصان ، أو حتى مفاعل ذرى ، غالبا ماتكون له أقل علاقة بالعائد الذى يكسبه حامل الأسهم فعليا .

حقيقة الأمر أن التركيز على الملكية يعنى توجها خطأ . إنه توجه نابع من فكر الموجتين الأولى والثانية . وكل تحليلات اليساريين تنطلق من سيطرة موضوع الملكية على الفكر الماركسى ، مما كان معقولا ومقبولاً منذ مائة سنة مضت ، ومما أخذ يصبح يوما بعد يوم أقل قبولا .

فى مجتمعات الموجة الأولى (عصر الحضارة الزراعية) ، كانت الملكية الوحيدة التى يعول عليها هى الأرض . وفى مجتمعات الموجة الثانية (عصر الحضارة الصناعية) لم تعد الملكية تعنى الأرض ، بل أصبحت تعنى « وسائل الانتاج وأدواته » .. خطوط التجميع والمصانع .

وأخذت الملكية فى الدول الصناعية الرأسمالية صورة ملكية المساهمة أو المشاركة . والتى تحمل فيها قطعة من الورق .. وتعتبر قطعة الورق هذه ـ فى حد ذاتها ـ تجريدا رمزيا للواقع ، وهذه الورقة ترمز تارة إلى جزء من مبنى ، أو جانب من آلة . لكنها على أية حال بقيت تعكس أساسا ماديا .

وفى الدول الأشتراكية ، انصرفت الملكية إلى الدولة . ورمز مشاركة الشخص فى هذه الملكية ، من الناحية النظرية ، هو كونه مواطنا . أى مواطن يمتلك نصيبا فى اقتصاد البلد يساوى قدر ثروة ذلك البلد . مقسما على عدد مواطنيه . وبرغم ذلك فالملكية التى يعول عليها هنا ، هى أشياء ملموسة ، آلات ومعدات ومبان .

المعلومات ثــروة المستقبل

أما فى مجتمع الموجة الثالثة ، ورغم أننا مازلنا فى حاجة إلى الأرض والآلات ، فإن الملكية الأساسية تصبح هى المعلومات .. وهذا ، كما سبق أن أشرت ، يعتبر تحولا ثوريا ، لأنها أول نوع من الملكية لايكون ماديا ، أو ملموسا ، كما أن احتمالاته لانهائية .

عندما أمتلك سهما من أسهم شركة (آى . بى . أم) مثلا ، فالذى أملكه حقا ، ليس هو الأرض المملوكة للشركة ، ولا المبانى القائمة عليها ، ولا الآلات التى داخل هذه المبانى .. بل ما أملكه أهم من ذلك ، إنه قدر المعلومات المنتظمة المصنفة التى تتحكم فيها هذه الشركة .

إن ملكيتى الآن مجردة ، فى الحقيقة ، مرتين ، فالسهم فى مثل هذه الشركة هو عبارة عن ورقة ، أى مجرد رمز ، والأكثر من هذا أنها ليست رمزا لأرض أو آلة ، أنها رمز لرموز أخرى داخل عقول الناس ! ..

وآخر الأمر ، أرانى أقول مرة ثانية ، إن ملكية المعلومات تتميز عن الملكية التى نعرفها فى كونها لانهائية ، فالمعلومات ذاتها ، يمكننى أن أستخدمها ، ويمكنك أن تستخدمها فى نفس الوقت ، وواقع الأمر ، أنه كلما زاد عدد الناس الذين يستخدمونها ، زاد توالد وتكاثر هذه المعلومات .

هذا هو مكمن التناقض عند الحديث عن الملكية فى وقتنا الحاضر . لقد أحالت الموجة الثالثة النظريات الاقتصادية القديمة إلى هباء .. سواء النظريات الرأسمالية أو النظريات الاشتراكية .

لقد أصبح كل من الرأسمالية والأشتراكية شيئا عفا عليه الزمان .

لكن ، ماهو مستقبل الديمقراطية فى عصر مابعد الصناعة ؟ لكى نجيب عن هذا السؤال علينا أن نفهم الدور الجديد للمعلومات فى الحياة السياسية .

الفصل السابع

الحياة السياسية
فى عصر المعلومات

هل سيكون الغد أكثر ديمقراطية من اليوم ؟ .. الإجابة عن هذا السؤال تتوقف إلى حد بعيد علينا جميعا .. ماذا سنفعل ؟ وكيف سنتصرف ؟ ولكى نفهم احتمالات وأبعاد الديمقراطية فى المستقبل ، نحتاج إلى فهم أدق لدور المعلومات الجديد فى حياتنا السياسية .

الظهور السريع للمجتمع الجديد ، يدفع إلى تركيز الانتباه ، بشكل قوى وواسع ، على الموضوعات السياسية المتصلة بثورة المعلومات التى نعيشها .. وعلى القضايا الجديدة علينا والتى لم نجرب مواجهتها من قبل .. قضية أقمار الاتصال الصناعية التى تسبح فى الفضاء حولنا ، وتبث معلوماتها المتدفقة عبر الحدود الدولية ، لاتقف أمامها حواجز أو موانع ، ولايكون لأى سلطة رقابية فرصة تصنيفها وحجب جانب منها .. خاصة بعد انتشار الهوائيات التى على شكل الطبق والتى أصبح بالإمكان أن يقتنيها كل فرد ، لكى يتصل مباشرة بالأقمار الصناعية دون تدخل من أجهزة الدولة .

ثم هناك مشكلة قراصنة المعلومات .. كيف يحمى صاحب المعلومات ملكيته ويمنع الشخص غير المستحق من استخدامها ، ومشكلة القوانين والتشريعات التى تنظم الحصول على المعلومات التى هى جسم الثروة فى مجتمع الغد .

هذه هى مجرد البدايات الأولى للمشاكل الجديدة التى ستواجهنا فى المستقبل القريب .. ووراء هذا كله يكمن سؤال أهم وأعمق ، له احتمالاته وآثاره المستقبلية العريضة :

ماهو مصير الديمقراطية ؟

● لقد كتبت ملايين الكلمات حول ثورة المعلومات ، لكن ماكتب عن مسبباتها قليل جدا .. هل يمكن أن نعرف رأيك فى دخولنا الآن إلى مايسمى عصر المعلومات ؟ لماذا لا ندخله بعد قرن مثلا ؟ أو بعد

قرنين ؟

ـ المسببات الاجتماعية تكون عادة مركبة ، لكنى اعتقد أن بامكاننا على الأقل تحديد القوى المؤثرة فى قيام ثورة المعلومات .

أعتقد أن وقود ثورة المعلومات عبارة عن خليط من « التنوع » و « التغير المتسارع » ضع هذين العنصرين معا ، تحصل على انفجار المعلومات .

منذ منتصف الخمسينيات تقريبا . شهدنا بداية انهيار المجتمع الجماهيرى القديم النابع من الحضارة الصناعية ، وفى عشرات المجالات ، من المجالات التكنولوجية إلى المجالات العرقية ، شهدنا المزيد بعد المزيد من ضروب التنوع . ومع مقدم الموجة الثالثة ، أو حضارة ما بعد الصناعة ، إلى مسرح الأحداث التاريخية ، ظهرت مكوناتها الأكثر تنوعا وتباينا وتميزا .

لكى نفهم شيئا عن دور المعلومات فى الحضارة القادمة . دعنا نتأمل المثل التالى .

تصور كائنا حيا بسيطا ، دودة الأرض مثلا ، ستجد لديها أجزاء وأعضاء متباينة ، قارن هذا بوضع الإنسان ، بأجزائه وأعضائه . بما لديه من رئة وكلية وحجاب حاجز ، ومخيخ ، وغشاء رمادى للمخ .. إلى أخر ذلك من آلاف الأعضاء والأجزاء التى تتبادل الأرتباط ببعضها البعض ، والتى تتخصص وظيفيا .

لكى تعمل كل هذه الأجهزة فى ترابط سليم ، لابد من انسياب قدر عظيم من المعلومات عبر الجسم على شكل نبضات كهربائية ، وانفجارات كيميائية ، وإفرازات هرمونية .. كل واحدة منها تمثل « رسالة » بحيث إن نبضا عصبيا معينا على سبيل المثال . يطلب إلى عضلة أن تنكمش . أو إلى إنسان العين أن يتسع . هذه « الرسائل » يجب أن تكون لها مساراتها عبر الجسم ، إذا ما أريد لأجزاء الجسم أن تتوافق وتتزامن مع بعضها البعض .

كلما زاد تخصص وتنوع أجزاء الجسم . زادت الحاجة إلى تدفق وانسياب المعلومات ، ومن الطبيعى أن يعبر أجسادنا قدر من

المعلومات يزيد بكثير جدا على ذلك القدر الذى يعبر جسم دودة الأرض .

دعنا الآن نطبق هذا المبدأ على المجتمع إذا ما كنت محقا فى أننا نتحرك إلى ما هو بعد مرحلة الانتاج والتوزيع والاتصال على نطاق واسع نمطى ، وإذا ما كان تقسيم العمل يصبح أكثر تحديدا . وإذا ما كانت الهياكل التنظيمية تزداد تنوعا ... إذا ما كنا نتحرك نحو وحدات أكثر لا مركزية ، ترتبط فيما بينها أحيانا فى إطار شبكات تنظيمية واسعة .. إذا ما كانت قوانيننا تتضاعف ، ومنتجاتنا تصبح أكثر تباينا من حيث القيمة والنوع .. إذا ما كان ذلك كله يحدث حاليا ، فإن الأمر يحتاج إلى أضعاف أضعاف ما اعتدنا التعامل معه من معلومات ، لمجرد الإبقاء على توازن النظام بأكمله .

العربة .. والحصان

● تقول إن التنوع يولّد المزيد من المعلومات . ألا يبدو هذا أشبه بوضع العربة قبل الحصان ؟ . بمعنى أن المعلومات هى التى تقود إلى التنوع ؟..

ـ تماما .. وهذا هو ما يطلق عليه المهندسون « حلقة التغذية المرتدة الايجابية » . تليفزيون الكابل ، على سبيل المثال يتيح المزيد من الرموز والرسائل التى تنساب عبر المجتمع .. أى المزيد من المعلومات . وهذا فى حد ذاته ، يشجع على قدر أكبر من التنوع فى المجتمع . والتنوع بدوره يرفع مستوى المعلومات المطلوبة للترابط والتكامل الاجتماعى . وبهذا . يمكننا القول بأن لدينا تنوعا يغذى نفسه . مع حاجة إلى مستويات دائمة الارتفاع من المعلومات .

لكننا مع ذلك نغفل عادة عاملا آخر هاما . هو عمل معدل سرعة التغير فى حد ذاتها .. ليس مدى التغير فقط ، ولكن السرعة التى يحدث بها .

كلما زادت سرعة تغير الأشياء ، زاد قدر المعلومات التى نحتاج إلى التعامل معها .

وفى واقع الأمر يعتبر هذا حالة خاصة من المبدأ الذى طرحناه . ذلك إذا نظرنا إلى التغيير باعتباره تنوعا فى الزمن .

المهم أن وضع الكائن فى لحظة معينة . يصبح مختلفا فى اللحظة التالية .. وكلما زاد معدل حدوث ذلك . زادت حاجته إلى المعلومات . عندما يتصدى لاتخاذ قرار مناسب .

لهذا أرى أن مانشهده اليوم من انفجار فى مجال المعلومات ، يعود إلى سببين رئسيين ، هما تزايد التنوع . وسرعة حدوث التغيير .

إن مجتمعنا يتطور من نموذج دودة الأرض ، إلى نموذج الانسان .. هذا التطور يتحقق بسرعة عالية للغاية ، ولايمكن مقارنتها بسرعة تطور الثورة الزراعية التى دامت عشرة آلاف سنة ، أو الثورة الصناعية التى عاشت ثلاثمائة سنة .

حتمية ظهور الكمبيوتر

● ولكن كيف يمكن لهذه القفزة فى مستوى تبادل المعلومات أن تؤثر فينا ماديا ؟

- إذا ما نظرت إلى العمالة فى كل المجتمعات الصناعية ، من بلجيكا إلى إنجلترا إلى اليابان إلى الولايات المتحدة ، فستجد هبوطا عنيفا فى حجم العمل اليدوى . وصعودا موازيا فى الأعمال المكتبية العقلية وستجد أن هذه الظاهرة بدأت تتضح عند منتصف الخمسينيات .

لقد أصبح النظام فى تكوينه الداخلى أكثر تركيبا وتنوعا ، وارتفع قدر المعلومات المطلوبة ارتفاعا شديدا ، إلى حد أن الأمر قد أوشك أن يبلغ حد الأزمة .

عندما حدث ذلك الانفجار فى حجم المعلومات ، اقتضى الأمر الكثير جدا من أوراق العمل . والكثير جدا من عمليات التنسيق ، والعديد جدا من الاجتماعات لاتخاذ القرارات ... أن انجاز عمل ما

أصبح يقتضى تبادل كم هائل من المعلومات ، مما كاد يهدد بالشلل والتوقف . وهذا هو السر فى تزايد عدد الوظائف الكتابية فى الأربعين أو الثلاثين سنة الماضية .

منذ عشرين سنة . بلغ الأمر حدا من المشقة ، جعل التحكم فوق طاقة البشر . لقد تدفق سيل الأوراق فى جميع قنوات الاتصال . وعندما وصل هذا إلى نقطة الانفجار . بدأ النظام العالمى يستجيب تكنولوجيا ، وهكذا بدأ تطوير أجهزة الكمبيوتر ، التى صممت أساسا لإجراء الحسابات العلمية ، بدأ تطويرها لكى تستوعب بعض الواجبات الإدارية .. وشاع انتشارها فى المكاتب ، فى جميع أنحاء العالم .

أما قنوات الاتصال التى كانت مستخدمة على مدى العصر الصناعى . مثل التليفون ، فقد أصبح الضغط عليها لايحتمل وأصبحت غير قادرة على التعامل مع الفيضان الجديد من المعلومات التى تخرج من الكمبيوتر . وهكذا ظهرت خلال العشرين سنة الماضية ، عائلة كاملة من قنوات الاتصال الجديدة ؛ كما ظهرت أدوات جديدة للتعامل مع المعلومات ، مثل أجهزة تحويل الكلمات إلى لغة الكمبيوتر والعكس ، وأجهزة الرصد البصرى ، والتخزين باستخدام الميكروفيلم ، ومئات المستحدثات التكنولوجية الشبيهة .. كلها ابتكارات تستهدف المساعدة على تخفيف حمل المعلومات المتدفقة .

وبهذا ، يمكننا أن نتتبع دائرة محددة ، المزيد من التنوع والتغير = المزيد من المعلومات = المزيد من التكنولوجيا التى تتعامل مع المعلومات = المزيد من التنوع والتغير .

هذه هى الدينامية التى تكمن وراء ثورة المعلومات . والتى هى مجرد جانب من موجة تغيير أكبر بدأت زحفها الآن على قواعد المجتمع الصناعى القديم .

والأكثر من هذا ، كلما ضاعفنا المعلومات الجديدة ونظمناها ، زاد فهمنا العلمى للطبيعة عمقا ، وبدأنا فى تحويل وتغيير صميم العملية

الانتاجيه ، بدلا من استخدام الكثير من عمليات التجميع اليدوى لصناعة آلة تصوير أو جهاز تليفزيون ، أصبح بإستخدام المزيد من المعلومات ، والأعمق من مستويات المعرفة لتخفيض عدد أجزاء المكونات ، وحقن الآلة بالمعلومات التى تجعلها توفر لنا المنتج الذى نسعى إليه .

هذه الثورة فى المعلومات لاتقتصر فى آثارها على المجال الاقتصادى ، بل تمتد إلى المجال الثقافى أيضا ..

السلطة والثقافة الجديدة

● وبأى طريقة يمكن لثورة المعلومات أن تؤثر على الثقافة ؟

ـ خلال العصر الصناعى ، كان همنا الأول هو : كيف نصنع الأشياء ؟ .. أما الآن فشاغلنا الأساسى قد أصبح : كيف ندير الأشياء ونتحكم فيها ؟

لقد بدأنا نستخدم المزيد من التناظر الوظيفى فى مجال المعلومات . مثل ذلك التشبيه الذى أوردته حول دودة الأرض والجسم البشرى . لقد بدأنا فى تحليل المشاكل من خلال مصطلحات نظرية المعلومات ، وتحولنا من تفسيرات السلوكيين فى علم النفس إلى التفسيرات الادراكية المعرفية ، وفى مجال السياسة . كما أشرت من قبل اكتسبت موضوعات جديدة أهمية كبرى مثل التحكم فى المعلومات ، وإدارة تيار المعلومات ، إن الفكرة القديمة التى تقول إن المعرفة هى السلطة والقوة قد عفا عليها الزمان . فاليوم لكى تمتلك السلطة تحتاج إلى معرفة حول المعرفة ...

● وهذا يصل بنا إلى موضوع السلطة ، وهو المحور الذى تدور حوله السياسة ، لقد سبق أن قلت إن مجتمع الموجة الثالثة الصاعد سيكون أكثر ديمقراطية مما شهدنا فى نظم الحضارة الصناعية ..

ـ يمكن أن يكون ، وليس « سيكون » .

● ألا يحتمل أن يقودنا هذا الى طريق عكسى .. إلى نوع من الفاشية التكنولوجية ؟ .. ألا يجوز أن يؤدى تحولنا إلى الموجة

الثالثة ، وإلى ثورة المعلومات التى هى جزء منها ، إلى تغيير فى البناء الطبقى لمجتمعنا .. ليس نحو المزيد من المساواة ، ولكن نحو تسلسل جديد فى هرم السلطة ، يستقر كهنة المعرفة على قمته ؟ ..

ـ بعض التكنولوجيات الجديدة تشكل تهديدا بلا شك .. لكن البعض الآخر يكون على النقيض من ذلك .. أنها تكنولوجيات تدعم سلطة الفرد فى مواجهة الدولة ، بعضها يقود إلى المركزية وبعضها يقود إلى اللامركزية .. وهكذا ، يكون من الخطأ أن تضعها جميعا فى سلة واحدة ، ورجال السياسة الأذكياء ، قد يحظرون استخدام بعض أنماط التكنولوجيا ، ويشجعون بقوة انتشار البعض الآخر .

● ماذا تعنى بهذه الأنماط التكنولوجية ؟

ـ دعنا نعط بعض الأمثلة المحددة :

لعل أكثر أدوات الاتصال قوة فى العصر الصناعى هى وسائل الإعلام الجماهيرى ، التى يتم التحكم فيها مركزيا ، إما من الدولة أو من الشركات الكبرى ، قارن هذا بالمسجل الصوتى ، مثلا والذى يستخدمه أى مستهلك ، ويصبح بالإمكان استغلاله فى نقل الرسائل لاشاعتها ، وعمل نسخ عديدة منها المرة تلو المرة .. وهو مايفعله المتمردون السوفييت للتحايل على رقابة الدولة ، وهو مافعله أعداء الشاه فى إيران . وبهذا ، يعتبر المسجل الصوتى من التكنولوجيات التى لايمكن التحكم فيها من أعلى ، وبهذا تصبح أداة فى صف الأفراد وليس ضدهم .

أو خذ مثلا آلة الاستنساخ (زيروكس) التى يمكن استخدامها فى نشر الأفكار .. فى طبع وتعميم التقارير والأعمال الأدبية بعيدا أيضا عن رقابة الدولة وتحكمها المركزى .

أو خذ الكمبيوتر .. لقد كانت النماذج الأولى منه مركزية تدعم سلطة الحكومة أو المؤسسات التى تستخدمها ، أما النماذج الجديدة من الكمبيوتر الشخصى أو المنزلى فهى صغيرة ، قليلة الثمن ، تسمح لأى شخص بأن يستخدمها فيما يراه هو . بل لقد أصبحت أداة طيعة بين أيدى الصغار .

أو خذ تليفزيون الكابل فى مقابل التليفزيون المركزى الذى يتصل بمركز البث عن طريق الهوائى (الايريال) ، التليفزيون القديم كان يدفع سيل المعلومات فى اتجاه واحد ، وكانت السلطة أو المؤسسة المالكة تتحكم بواسطته في كل مايدخل وعى المشاهدين ، تعطيهم ماتختاره لهم من مادة ، وتعطيها لهم جميعا فى نفس الموعد والتوقيت (وهذا يحقق أساسا هاما فى أسس الحضارة الصناعية ، وهو صبغ المواطنين بصبغة واحدة . وتشكيل عقولهم على أساس نمط واحد) . أما النظام التليفزيونى الجديد ، تليفزيون الكابل . فيسمح أولا بتنوع واسع فى القنوات يتيح للمتفرج أن يختار من بينها ، كما يسمح بتبادل التأثير بين المشاهد ومحطة البث . عندما يتمكن المتفرج من التحدث إلى المذيع ، وإبداء رأيه فيما يذاع .

بإمكاننا أن نمضى قدما فى هذا المجال لإثبات أن العديد من التكنولوجيات الجديدة ، وبخاصة فى مجال المعلومات والاتصال يمكن أن يساعد على تخفيف القبضة المركزية على حياتنا ، وليس العكس .

المعنى الجديد للطبقة

● ولكن ألا يؤدى هذا إلى خلق طبقة جديدة من التكنوقراطيين ، والمتخصصين ، والمديرين ، والعلماء ، ورجال الكمبيوتر ؟

.. ألا ترى أن ظهور هذه الطبقة الاقتصادية الجديدة يؤدى إلى التأثير على باقى الشعب وإلى التحكم فيه ؟

وبشكل عام ، ألا نستطيع القول بأن عندنا فى الغرب ، حتى الآن ، طبقة رأسمالية وطبقة عاملة ، وطبقة صغيرة ذات طابع تكنوقراطى تقوم بشتغيل الأعمال لحساب الرأسمالية (وإن كان لديها هى ذاتها بعض المصالح فى هذا) ؟

ومع تزايد المعلومات . ألا تنمو هذه الطبقة الثالثة من جيث الحجم ، والسلطة ؟ ألا يظهر ـ من وجهة نظرك ـ خطر واضح يتمثل

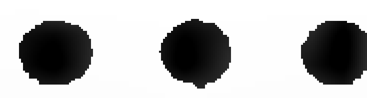
فى أننا بدلا من النظام الديمقراطى ، نتحول إلى نظام آخر تكنوقراطى ، تحتكر فيه السلطة هذه الطبقة الثالثة ؟

ـ قد نجد صعوبة فى حوارنا حول مضمون كلمة « طبقة » إذا ما تكلمنا عن « الطبقات » بالمفهوم الماركسى الحرفى ، فأننا نحددها ونعرفها من حيث علاقاتها بما يطلق عليه « أدوات الانتاج » أى الملكية ، حيث المفترض أن تمتلك البرجوازية أدوات الانتاج ، فى الوقت الذى لاتمتلك فيه البلوريتاريا (الطبقة العاملة) أى شىء فيما عدا القدرة على العمل ، وهو ما يعنى عضلاتها أساسا .

لقد سبق أن أوضحت أن الملكية فى عالم اليوم لا ترتبط حتما بالتحكم والسيطرة ، وقد واجه ماركس نفسه المتاعب عندما تصدى لتحليل الملكية فى المجتمعات السابقة لعصر الصناعة ، كانت السلطة تستمد فعلا ، ليس من امتلاك الأرض ، ولكن من ممثل الحاكم فى منطقة معينة .

وقد تشكك الكثير من الكتاب فى كون الملكية الوسيلة الوحيدة والدائمة للسلطة قبل المجتمع الصناعى ، وقالوا إن فكرة الطبقة القائمة على الملكية ، ببساطة لا تناسب واقع المجتمعات غير الصناعية ..

وكما قلت من قبل نحن نتحرك نحو مجتمع غير صناعى ، يقوم على التكنولوجيا العالية ، ولهذا فقد أخذت أهمية فكرة الملكية تخفت وتتبدد مرة ثانية .



يمضى توفلر بعد ذلك ليقول إن طبقة « البلوريتاريا » التى عرفتها المجتمعات الصناعية بدأت تخلى سبيلها لطبقة جديدة يطلق عليها تعبير « الكوجنيتاريا » .. وهى طبقة تقوم على المعرفة ، وعلى استخدام العقل أكثر من العضلات .

الفصل الثامن

الطبقة الجديدة ..
ومصير الديمقراطية

نتيجة لانقضاء جماهيرية الحضارة الصناعية .. وشيوع التنوع .. وتسارع التغيرات الاجتماعية .. حدثت ثورة المعلومات .. وغيرت بدورها تركيب المجتمع وبنيته الأساسية .

لكن تشكل المجتمع الجديد ، مجتمع حضارة الموجة الثالثة أو حضارة مابعد المجتمع الصناعي ، يأتي معه بالعديد من المخاوف .. من الذى ستكون فى يده السلطة ؟ من الذى سيحكم ؟.. وماهو مصير الديمقراطية ؟

فى هذا المجال يبشر توفلر بظهور طبقة جديدة تحل محل الطبقة العاملة (البلوريتاريا) التى عرفها المجتمع الصناعى : طبقة " الكوجنيتاريا " التى تقوم على المعرفة ، وتعتمد على العقل أكثر من اعتمادها على العضلات .

● لكن ماذا عن الطبقة الجديدة ؟ فالتملك ، على أى حال ، ليس هو الأساس الوحيد لتحديد الطبقة ، وهذه الطبقة الجديدة يبدو أنها تقوم على دورها فى المجتمع ، ونوع عملها ، وعلى ماتستوعبه من تدريب ، أكثر من قيامها على أسس أخرى .

- إذا ماكانت " الموجة الثانية " قد أفرزت طبقة " البلوريتاريا " يمكننا القول بأن الموجة الثالثة تنجب لنا مايسمى " الكوجنيتاريا " فئة قائمة على المعرفة وعلى استخدام العقل وليس العضلات .. هذه " الكوجنيتاريا " تمتلك المعلومات المنظمة ، والخيال .. وغير ذلك من الخصائص الثقافية الأخرى ، والتى هى أساسية فى العملية الانتاجية ، إنها تمتلك أدوات انتاج المزيد من المعلومات ، إنها تمتلك مايمكن اعتباره مادة خاما أساسية ، أو " صندوق عدة " الأدوات العقلية ، لذلك فهى تجلس على مائدة المساومة ، حائزة على مزيد من القوة إذا ماقورنت بموقف " البلوريتاريا "..

لكن السؤال الحقيقى هو ما إذا كان من السليم أن نفكر

مستخدمين مثل هذه الاصطلاحات الاقتصادية الحرفية .. قد يكون أكثر فائدة أن نفكر فى هذه الفئة كطبقة اجتماعية ، والأفضل من ذلك أن نتعامل معها كطبقة ثقافية .. ذلك أن أهميتها الاقتصادية تجىء فى المرتبة التالية .

● لكن إذا ماتضاعف حجم فئة " الكوجنيتاريا " عندنا ، ولنقل على سبيل الافتراض ، من عشرة ملايين إلى ثلاثين مليونا ، فهل يوفر لنا هذا بالضرورة مجتمعاً مستقبليا يقوم على أساس الحرية الاقتصادية الحقة ، وهل يوفر لنا ديمقراطية المشاركة الفعلية ؟

ـ لا .. ولكن لأن المعلومات التى بداخل المخ الاجتماعى لهذه الفئة تعتبر ضرورية للاقتصاد ، فإن هذه الفئة تعتبر عنصرا حاسما فى تكوين المجتمع ، وإذا ما أصبحت تشكل أغلبية ، فسيكون لها موقفها الجديد من الدولة .

هذه الفئة بحكم تعريفها تعتبر عالية التعليم نسبيا ، خبيرة بالحياة والناس ، رفيعة المستوى ثقافيا تمتلك وسائل اتصال متطورة ولديها وسائل اتصالها الخاصة .. آلاف المطبوعات المتخصصة ، والشرائط ، وشبكات الكمبيوتر .. إنها ليست بأى حال من الأحوال معدومة القوة فى مواجهة المالكين الرأسماليين ، أو الدولة . بهذا المعنى تعتبر " الكوجنيتاريا " فى موقف مختلف تماما عن موقف " البلوريتاريا " .

وبالتأكيد لايمكن أن نفترض أن كل شخص سيكون حائزا ، أو قادرا على حيازة تلك المهارات الخاصة جدا التى يجب أن تتوافر فى العامل العقلى ، ستكون هناك وظائف كثيرة جدا فى المجتمع للأشخاص الذين لا يتمتعون باستعداد فطرى ، للدخول فى عالم التجديد الصرف .

مزيد من الديمقراطية

● إذا ماكان البعض يقوم بالعمل العقلى ، بينما يقوم البعض

الآخر بالأعمال التى تتبع الأساليب التقليدية الشائعة ، ألا يؤدى هذا إلى أن يسيطر العمال العقليون على المجتمع الجديد ؟.. ألن تتشكل الأحزاب السياسية التى تعبر عن مصالح هذه الفئة فى مقابل مصالح أصحاب رءوس الأموال وأيضا فى مقابل العمال الذين لايتاح لهم التعامل مع المعلومات ؟... ألا يؤدى احتكار الكوجنيتاريا للعمل العقلى إلى أن يرتب لها من المزايا ما يتيح لها الفوز فى أى صدام اجتماعى ؟

- يبدو أننا نسأل أنفسنا الأسئلة الخاطئة .

إن ظهور « الكوجنيتاريا » يرتبط مباشرة بعملية التنوع المتزايدة فى المجتمع ، فإذا لم يتحقق التزايد الشديد فى التنوع ، فلن نكون فى حاجة إلى طبقة واسعة من المنسقين الفنيين الذين يتعاملون مع المعرفة ، ومن ثم لن يتاح لهذه الفئة أن توجد أصلا .

وإذا كنا نمضى نحو المزيد من التنوع والتعدد ، فإنه يكون من الخطأ افتراض أن العمال العقليين سيتصرفون كطبقة ، أو على شكل كتلة متحدة .

لقد قال ماركس إن نظام المصنع خلق الظروف التى قادت إلى وحدة الطبقة العاملة .. وأنا أقول إن انتهاء نظام المصنع بشكله التقليدى والتحول إلى الانتاج والتوزيع غير الجماهيرى وغير النمطى يخلق ظروفا مناقضة ، ويقود إلى حركات سياسية غير متوحدة ، بل متنوعة إلى أقصى حد .. هذا هو مانسير نحوه .

ففكرة أن العمال العقليين سيتحدون ليتحكموا فى باقى المجتمع ، هى فكرة خاطئة فى تقديرى .. وأعتقد أن أبناء هذه الفئة سيواجهون مشقة شديدة ، وأكثر من أى فئة أخرى ، إذا ماحاولوا تشكيل أغلبية متحدة .

● إذن فأنت ترى أن صعود فئة العمال العقليين ، سيعنى آخر الأمر المزيد من الديمقراطية ؟

- هناك طريقة للنظر إلى الديمقراطية نفسها باعتبارها وظيفة من وظائف المعلومات ، واتخاذ القرارات فى المجتمع .. إلا أن السياسة

تعتبر أكثر من مجرد نظام لاتخاذ القرارات .. إنها نوع من النشاط المسرحى .. إنها مباراة .. وهى غالبا شكل من أشكال العقيدة .. لكنها أيضا عملية تتخذ من خلالها أكثر القرارات الجماعية أهمية ، لذلك تعتبر وظيفتها ، أداة لاتخاذ القرار ، من سماتها الحاسمة .

من الزراعة إلى الصناعة

● الحدود التى أشرت إليها .. ألا تجعل من الممكن للتكنوقراطيين أن يسيطروا على سلطة اتخاذ القرار ؟..

ـ إذا أردت أن أعرف ماسيكون عليه المستقبل السياسى ، فى مجتمع التنوع الشامل ، والذى يضم مجموعة كبيرة من المتعاملين مع المعلومات ، أو الذين يعالجونها فسيكون من المفيد أن أرجع إلى الوراء قبل أن أنظر إلى المستقبل .

من الواضح تماما أن مجتمع ماقبل الصناعة ، كان أيضا مجتمع ماقبل الديمقراطية ، ففى المجتمعات الزراعية القديمة ، لم يكن يشارك فى اتخاذ القرارات السياسية أو الاقتصادية الأساسية سوى قلة محدودة من الأشخاص ، ومن الثابت تاريخيا أن الزراعة نادرا ماكانت تميل إلى الديمقراطية ، حتى فى أثينا قامت الديمقراطية لحساب القلة ، وعلى أساس عبودية الأغلبية .. لكن مانعرفه باسم الديمقراطية لم يظهر إلا فى عصر الصناعة ، فمع انتشار موجة التصنيع تفجرت ثورة الديمقراطية والإصلاح ، التى قادت إلى توسيع قاعدة المشاركة .

بدلا من الاقتصاد البسيط المتشرذم ، نشأ اقتصاد مركب متشابك ، ونشأ مجتمع تجرى فيه نشاطات متباينة للغاية ، لابد من التنسيق بينها . إن الذى حدث هو تغير كبير فى كم وكيف طريقة اتخاذ القرار .. لقد أصبح الأمر يحتاج إلى مزيد من القرارات المترابطة لإدارة المجتمع الصناعى ، أكثر بكثير مما كنا نحتاج إليه فى مجتمع ماقبل الصناعة .

ومن المعروف إنه إذا غيرنا البيئة المادية لمجتمع ما ، بتخريب الطاقة التى توفرها له الأرض مثلا ، أو بإغراق وادى النهر ، يكون على الناس الذين يعيشون فى هذه البيئة أن يعيدوا تنظيم أنفسهم لكى يعيشوا ، فبناء أى مجتمع جديد يستجيب لتغيرات البيئة المادية والتكنولوجية ، كما يستجيب فى نفس الوقت للتغيرات الاستراتيجية والاقتصادية والثقافية والبيئية .

وهناك أيضا عنصر غير ظاهر .. هو بيئة اتخاذ القرار ، إن مافعلته الثورة الصناعية من بين أشياء عديدة أخرى هو أنها غيرت بيئة اتخاذ القرار بشكل دراماتيكى .

الثـورة الديمقراطيـة

● وكيف تؤثر التغيرات فى بيئة اتخاذ القرار ، على البيئة السياسية ؟

- من المهم أن نعى جيدا مضمون عبء اتخاذ القرار ..

فى أى لحظة توجد مسئولية محددة لاتخاذ القرارات اللازمة لإدارة مجتمع ما .. مجموعة خاصة من القرارات .. على درجة معينة من التعقيد لابد من اتخاذها خلال وقت محدود .

عندما طوت الموجة الثانية النظام الزراعى القديم للموجة الأولى ، لم تجلب معها فقط مداخن المصانع ، بل جلبت حاجة أشد إلى التنسيق وتحقيق التكامل .. وقد اقتضى هذا المزيد من القرارات قياسا على ماسبق ، وفى المقابل قاد هذا إلى نمو حاد فى نسبة الأشخاص المشاركين فى اتخاذ القرارات .. فى الأعمال السياسية كما فى الحياة الاجتماعية .. هذه المجموعة تم تنظيمها على شكل متسلسل من الصفوة وماتحت الصفوة ، وصنع هؤلاء العمود الفقرى للطبقة المتوسطة . وبشكل آخر ، يمكن القول بإن مقدم الحضارة الصناعية ضاعف بشكل جذرى عبء اتخاذ القرار فى المجتمع .

فالصفوة القديمة الضئيلة جدا ، والقادمة من الحضارة الزراعية ،

لم يكن بإمكانها أن تتخذ كافة القرارات المطلوبة لادارة المجتمع الجديد ، وهكذا تم إدخال أشخاص جدد إلى ميدان اتخاذ القرار .. وهذا هو جوهر « الثورة الديمقراطية » التى جاءت فى إطار الثورة الصناعية .. إشراك المزيد من البشر فى عملية اتخاذ القرار .

ديمقراطية الحضارة الصناعية ناقصة

● أنت تتكلم كما لو أن الجميع قد استفاد من هذا ، وكما لو أنه كانت هناك ديمقراطية حقيقية .. واقع الأمر أن أقلية محدودة هى التى شاركت فى اتخاذ القرارات ، فى تحمل ما سميته عبء اتخاذ القرار .

ـ هذا صحيح ، إن انتشار الديمقراطية لم يمتد ليشمل الجميع . الذى حدث أن الطبقة المتوسطة قد استطاعت أن تنفذ من شقوق فى الهيكل الجديد لنظام اتخاذ القرار ، بينما لم يحظ العمال والفلاحون إلا بحق الانتخاب بين الحين والآخر .

وهذا بالفعل شكل محدود للمشاركة ، فالقرارات اليومية الرئيسية كانت تتخذ بلا مشاركة فعلية من العمال والفلاحين ، الأمر الذى مازال ساريا بشكل أو بآخر ، إن ماتحقق هو ديمقراطية جزئية أو شبه ديمقراطية .. وقد تحقق هذا نتيجة للزيادة المفاجئة فى عبء اتخاذ القرار داخل المجتمع ..

واليوم نشهد اتساعا جديدا فى عبء اتخاذ القرار ، وهذا هو مايجعل الوضع الحالى حاسما فى التاريخ السياسى .

ثلاثة عوامل مؤثرة على الدولة

● لا أعتقد أنك تعنى بهذا أن الطبقة العاملة ستقوى سلطتها فجأة فى النظام الجديد .. وأننا سنحظى فجأة بديمقراطية حقة .. توفر المشاركة الفعلية للجميع ..

ـ لا .. ليس بالمرة .. حقيقة الأمر أن هذه الفئات قد تنكمش فى

الحجم والدلالة والتأثير .. فاليوم .. فى الولايات المتحدة الأمريكية لا تزيد نسبة الفلاحين على أربعة فى المائة ، ونسبة عمال المصانع قد تقترب فى المستقبل القريب من هذا الرقم .. إلا أن السؤال الأساسى هو : ما الذى سيحدث بعد ذلك ؟

هناك ثلاثة عوامل ستؤثر على المستقبل السياسى للدولة : الأول هو تزايد حجم العمال العقليين ، والثانى هو قفزة هائلة فى عبء اتخاذ القرار .. أما الثالث فهو الكمبيوتر .

إذا ماكنت محقا فى أننا نمضى نحو مزيد من التنوع فى المجتمع ، التنوع الشامل الذى يسود الطاقة والانتاج والحياة العائلية والقيم ، فهذا يعنى بالضرورة المزيد من المعلومات التى لابد أن تنبض عبر المجتمع مما يعنى المزيد من المتعاملين مع المعلومات ، أى المزيد من القرارات ، ويترتب على هذا أن الصفوة وماتحت الصفوة من الطبقة الحاكمة الحالية لن تعود قادرة على احتمال عبء اتخاذ القرارات بمفردها .. ستفشل فى ذلك بمثل مافشلت الصفوة الإقطاعية وقت بزوغ الحضارة الصناعية .

وواقع الأمر أنه كلما نظرت حولى اليوم أجد رجالا ونساء على درجة عالية من الذكاء يتخذون من القرارات ماهو أغبى وأشد غباء فى السياسة والصناعة والاستثمار والتعليم .. وفى كل مجال .

إن مستوى اتخاذ القرار لدينا يتخلف يوما بعد يوم ، ليس لأن المتحملين لذلك العبء من الأغبياء ، ولكن لأنهم جميعا يلهثون ، فهم مطالبون باتخاذ الكثير جدا من القرارات بسرعة شديدة حول العديد من الموضوعات التى يعلمون عنها أقل القليل .

إن صفوتنا الإدارية تترنح تحت العبء المستحيل لاتخاذ القرار ، وهذا هو ماسيرغم الصفوة على السماح بالمزيد من مشاركة الآخرين حتى يساعدوهم فى تحمل عبء اتخاذ القرار ... لهذا نسمع كثيرا هذه الأيام عن مساهمة العمال فى اتخاذ القرار ليس لأن الصفوة فقدت أنانيتها ، ولكن لأن النظام القديم لاتخاذ القرار لم يعد

صالحا .. أيا كانت التسمية ، فإن هذا يعنى دخول المزيد من البشر إلى دائرة اتخاذ القرار .

فتـات الحقـوق

● أنا لا أتصور هذا توسيعا للديمقراطية ونشرا لها .. إنه أشبه بتلقيم البشر بعض فتات الحقوق ، لمجرد أن تظل السفينة عائمة .. ثم هناك الاحتمال الآخر ، أن يتحول هذا مع الزمن إلى نوع جديد من التكنوقراطية .

ـ استخدم ماتشاء من الاصطلاحات .. وفى آخر الأمر تبقى حقيقة ثابتة ، هى أن نسبة البشر خارج نطاق عملية اتخاذ القرار اجتماعيا وسياسيا وتنظيميا .. على مختلف المستويات ، ستصبح أقل عندما يصبح عبء اتخاذ القرار أثقل من أن تتحمله الصفوة الحاكمة الحالية .

وأنا لا أعنى أن هذا سيحدث بدون صراعات .. بل أتصور صراعات هائلة حول حق المشاركة ..

شبكة الكمبيوتر الشخصى

● وأين هو دور تكنولوجيا الكمبيوتر فى هذا كله ؟

ـ يشكل الكمبيوتر حاليا ضغوطا عجيبة عديدة على النظام السياسى ..

نظم الكمبيوتر الكبيرة العملاقة التى يتم التحكم فيها مركزيا تزيد من سلطة الدولة على الفرد .. ولكن الكمبيوتر الشخصى الصغير وشبكات الاتصال بين هذه الوحدات الصغيرة يمكن أن تؤدى إلى تقوية ودعم سلطة الفرد .

لقد قاد ظهور الكمبيوتر إلى تغيير جذرى فى التوازن الاستراتيجى العسكرى ، وفى مسار الرأى السياسى ، وحتى فى تحديد وتصنيف بعض الموضوعات السياسية ، واليوم تستخدم الجماعات السياسية فى الولايات المتحدة الأمريكية الكمبيوتر فى توجيه الرسائل السياسية إلى الأفراد مباشرة ، مما يساعد على تزايد هذه الجماعات ويضاعف من تنوعها .

فى أول الأمر نظرت الصفوة إلى الكمبيوتر باعتباره الآلة التى تستطيع أن تخفف عنها بعض أثقال عبء اتخاذ القرارات حتى تتفرغ لما بقى منها ، لقد نظرت إليه باعتباره آداة لمزيد من المركزية فى تحكمها ، ووسيلة للقيام باتخاذ القرارات الروتينية بشكل آلى ، نيابة عنها .. كما نظرت إليه باعتباره الجهاز الذى سيعفيها من مضاعفة عدد الأفراد الذين ستضطر إلى إدخالهم ضمن صفوة اتخاذ القرار .

إلا أن ماحدث لم يتفق مع آمال أفراد هذه الصفوة .. فبالنسبة لعبء اتخاذ القرار ، وجدوا أنه يتضاعف بسرعة شديدة منذ ظهور الكمبيوتر ، وقادت سرعة تضاعف ذلك العبء إلى أن تعمل الصفوة على ترجيح لا مركزية سلطة اتخاذ القرار أكثر فأكثر .. وهكذا زحف الكمبيوتر على أماكن لم تكن الصفوة القديمة تتصور وصوله إليها ..

وفى مكان قلة من أجهزة الكمبيوتر العملاقة التى يتم التحكم فيها من القمة .. نجد مئات بل آلافاً بل ملايين أجهزة الكمبيوتر الصغيرة تنتشر عبر المجتمع .. فى البيوت والمدارس والكنائس والجراجات والمحال العامة ، وهى ترتبط مع بعضها على شكل شبكة تتيح تبادل المعلومات .. كل ذلك خارج تحكم أى كمبيوتر مركزى .

النتيجة النهائية لهذا ، هى زيادة فى عدد الذين يشاركون فى اتخاذ القرارات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

سيصبح الكمبيوتر أكبر وأهم حليف للديمقراطية بعد صندوق الانتخابات التقليدى .

الفصل التاسع

قضية المرأة ..
والتفرقة بين الجنسين

بعد ملايين السنين من التطور ، لماذا يظل الجنس البشرى مصابا بداء التفرقة بين الرجل والمرأة ، وبوباء التفرقة العنصرية ؟ لماذا نظل حتى اليوم نبرر سيطرة جنس على جنس أو عرق على عرق ؟

لاينكر أحد أن هناك فروقا بين الرجل والمرأة ، وبين العناصر البشرية المختلفة ، ولكن هناك فرقا بين الاعتراف بهذا التنوع البشرى وبين إقامة نظام قهر على أساس هذا التنوع .

لقد أظهر الجنس البشرى قدرا هائلا من الابتكار والإبداع ، عند تصديه لمهمة تبرير القهر ، فظهرت نظريات من كل نوع ، تسعى إلى إسباغ هيكل منطقى على عملية إساءة معاملة المرأة واضطهاد الأقليات .. نظريات فى الذكاء والفن والاقتصاد والجريمة .

● والآن ، ونحن على أبواب مجتمع التنوع والتعدد والتمايز ، يمكن أن نتحول جميعا ـ بذلك المعنى ـ إلى أقليات ولذا ، علينا أن نواجه مشكلة التمييز العنصرى والجنسى بكل قوة وشجاعة ، قبل أن نفيق على مستقبل نكرهه جميعا .

لنبدأ بالقضية الأسهل ، أعنى قضية التمييز بين الرجل والمرأة وهى أسهل لأنها تجد لها حلولا جزئية كل يوم ، مما يبشر بإمكان مواجهتها مواجهة نهائية فى المستقبل القريب .

لماذا كانت المرأة هى الخاضعة فى جميع الحضارات ؟ .. لماذا تعرضت على مدى التاريخ لضروب من العنف والخطر والكبت والتضييق ؟ .. لماذا كان عليها أن تخضع للرجل ؟

إلى وقتنا هذا ، بل فى العديد من الدول المتحضرة ، مازلنا نعيش حضارة تعتبر أن سيطرة الرجل على امرأة شىء طبيعى ، ومعظم الصغار يتشربون أفكار سيطرة الرجل منذ طفولتهم .. فما هو موقف « ألفين توفلر » من هذه القضية ، وكيف يتصور مستقبل المرأة فى الحضارة القادمة ؟

وماهى مكانة المرأة فى مجتمع الموجة الثالثة ؟

ظواهر التفرقة مترابطة

ـ لقد تبلورت ملاحظاتى حول هذه القضية ، انطلاقا من الحرب العالمية الثانية . كنا نحارب النازية ، التى كانت تحض من بين ضروب أفكارها القاسية على إدانة المرأة ، والنظر إليها كحاضنة أطفال ، وحولت فعلا بعض النساء إلى آلات إنجاب لفحول القوات الخاصة (إس إس) . وقد ساعدتنى كراهيتى للنازية على أن أربط بين إساءة معاملة المرأة ، وإساءة معاملة الفئات الاجتماعية الأخرى كاليهود والسود .

ورغم اعتقادى بعدم تماثل ظواهر العنصرية ، والتمييز بين الرجل والمرأة والتعصب الدينى ، وبعدم إمكان إجراء تشبيهات بسيطة بينها ، فإن العلاقات المتبادلة بين هذه الظواهر تستحق الدراسة والتأمل .

والسر فى صعوبة التعامل مع هذه الأمراض الاجتماعية ، هو أنها تضرب عميقا فى كل أنماط السلوك وتتخذ أشكالا لاحصر لها . يمكننا أن نجد مظاهر للتفرقة العنصرية والتمييز بين الجنسين فى عديد من الدول ، على شكل تميز فى الوظائف ، أو التعاملات الإقتصادية ، أو حتى فى فيض النكت الساخرة . ونرى هذا فى تصنيف الجماعات العرقية والقومية والعنصرية .. فى تعالى الروس على أهل جورجيا وأوزبكستان ، وتعالى سكان أمريكا الشمالية على أبناء أمريكا الجنوبية وتعالى الأنجلوسكون على أهل كويبيك فى كندا ، وتعالى اليابانيين على الكوريين .. إلى آخر ذلك .

وسط هذه الأشكال من التميز العنصرى ، يبرز الفرض القائل بتفوق الرجل ، وحتى الآن فى الصين ـ بعد ثلث قرن من الثورة ـ مازال الفلاحون يضربون زوجاتهم إذا ماأنجبن لهم إناثا بدلا من الأولاد الذكور .

كيف بدأ المجتمع الأبوى ؟

● وماهو فى رأيك مصدر النظام الأبوى ؟ .. وإذا لم تكن سيطرة الرجل أمرا قدريا ، ولم تكن راجعة إلى التركيب الوراثى ، فكيف نشأت وتواصلت ؟

ـ من الذى يعلم ؟ .. هناك قدر كبير من التصورات الأنثروبولوجية (النابعة من علم الأجناس البشرية) والأركيولوجية (النابعة من علم الحفريات الأثرية) .

عندما نقول إن تفوق الرجل ليس وراثيا فهذا لايعنى أننا نلقى بعلم الأحياء من النافذة . فليس مستبعدا افتراض أن المرأة خضعت للرجل نتيجة لقصور فى تركيبها ، أو على الأقل لخاصية فى تركيبها جعلتها تحمل الأطفال فى أحشائها ، خاصة فى المجتمعات البشرية الأولى ، عندما انتقل الانسان من مجرد جمع الطعام إلى الصيد .

يبدو من المعقول تصور أن الرجل كان بإمكانه أن يمضى مبتعدا وأن يبقى بعيدا عن أسرته لوقت أطول ، وأن يتميز ببناء عضلى أكثر تفوقا . ولهذا كان من الطبيعى أن ينصرف الرجال إلى الصيد ، وتنصرف النساء إلى العمل المنزلى .

وممارسة الصيد فى ذاتها ، ربما طورت لدى الرجال خصائص الافتراس ومهارات الإكراه ، التى أمدتهم بسلطة متزايدة على المرأة ، أضف إلى هذا أن الرجال كانوا يسعون إلى أن تنجب المرأة أكبر عدد من الأولاد . وكلما زاد عدد الأبناء ، قلت فرصة المرأة فى منازعة الرجل على السلطة . ورغم أن المرأة كانت ترعى الأطفال من الذكور والإناث ، فإن الرجل كان ينتزع منها الذكور ويخرجهم من

أحضانها ساعيا إلى إدخالهم إلى عالم الرجال ، يفسر هذا الكثير من طقوس البلوغ الخاصة بالذكور فى عديد من المجتمعات البدائية .

على أى حال ، هذه مجرد تصورات والسؤال الحقيقى ليس هو : كيف بدأ المجتمع الأبوى الذى تسود فيه سلطة الرجل ؟ .. ولكنه لماذا تواصل هذا الوضع فى مجتمعات ذات ظروف مختلفة ؟

الصناعة تدشن التفرقة

● نعلم أن سيطرة الرجل وتميزه عن المرأة ، ترجع إلى ماهو أقدم بكثير من الثورة الصناعية . فكيف حدث أن استمر هذا ؟ .. ولماذا لم يختف هذا كما أختفى الكثير من القيم والتنظيمات ؟

- أعتقد أن السبب فى أن التمييز بين الجنسين لم يختف ، هو أنه حتى فى النظام الصناعى كانت النساء تواجه بأشكال معينة من القصور البيولوجى ، ولاشك أن الثقافة القديمة والأيديولوجيات القديمة التى ترجع عمرها إلى عشرة آلاف سنة من الزراعة ، قد تواصل تأثيرها . لكن بالاضافة إلى ذلك ، عندما تحولنا من الحقل إلى المصنع ، بقيت أشكال العمل الجديدة تعتمد أساسا على القوة العضلية المحضة . ورغم أن النساء قمن بالعمل الجسمانى فى الحقول والمناجم والمصانع ، فإن الرجل كان ينظر إليهن دائما باعتبارهن أكثر فائدة فى الأعمال التى لاتعتمد على القوة الفظة .

أضف إلى ذلك أنه قبل ظهور لبن الأطفال المعلب ، وغير ذلك من طعام الأطفال الجاهز ، ظلت المرأة غير قادرة على الابتعاد عن رضيعها .. وهذا يعنى أنه إما أن تبقى فى البيت ، أو أن تأخذ معها الرضيع إلى المصنع ، الأمر الذى اعتبر غير عملى ، بالاضافة إلى مافيه من خطورة واضحة على صحة الطفل .

وهكذا بالرغم من أن الثورة الصناعية جاءت معها بتغييرات هائلة فى مجال التكنولوجيا والثقافة ، وغير ذلك من المجالات ، أبقت على

أسس عدم المساواة البيولوجية . وحتى الآن مازالت التغيرات البيولوجية (أى الحيوية) هى أبطأ التغيرات فى النظام الرئيسى الذى يؤثر على الحياة البشرية .

ومع ذلك فقد أعطت الثورة الصناعية طابعا جديدا تماما للعلاقات بين الرجال والنساء .

سحب وظائف البيت

● لقد ركزت فى كتاباتك على « البيت » كمفتاح للعديد من التغيرات ماهى أكثر السبل أهمية فى التغيرات التى طرأت على البيت ؟

ـ كانت العائلة فى معظم المجتمعات الزراعية للموجة الأولى كبيرة تعمل فيها عدة أجيال معا كوحدة انتاجية ، وتعيش تحت نفس السقف كان البيت بحقوله القريبة مقر العمل ومركز الحياة . كان البيت هو المدرسة والمستشفى ، وكان هو الملجأ الذى يجرى فيه رعاية المسنين .

لقد انتزعت الثورة الصناعية كل هذه الوظائف من البيت . العمل المدفوع الأجر لحساب السوق انتقل إلى المصنع وإلى المكتب ، وأصبح المملكة الأولى للرجل . وتولت المدرسة مهمة التعليم وتولى الأطباء فى مستشفياتهم أمر رعاية المرضى ، كما افتتحت الدولة الملاجىء والدور الخاصة برعاية المسنين . وهكذا أصيب البيت كمركز أهمية بضربة عنيفة .

كذلك أعيد تعريف أدوار الرجال والنساء بشكل جاد . يخرج الرجل إلى عالم من العمل المتشابك ، ويعود إلى البيت بالنقود . وتبقى المرأة فى البيت لتمارس الأشكال الأكثر قدما من العمل ، عمل غير مدفوع الأجر ، مستقل للغاية ، خاص ، لايتصف بالعمومية .

وسائل الاتصال الجماهيرى

● إذا كانت الثورة الصناعية قد تركت القيم الأبوية على حالها ، ألا

يجعلنا هذا نقول إن القيم أكثر عمقا وأصالة فى كيان الجنس البشرى ، من الثورات التكنولوجية والاقتصادية التى نركز الحديث عنها ؟

ـ بعض العمليات الاجتماعية تكون على درجة عالية من الارتباط ، تغذى بعضها البعض بشكل وثيق ، مما يجعل من الصعب علينا أن نقوم بفصل المؤثر عن النتيجة . هذه العمليات تتبادل التأثير فى نفس الوقت .

ويقول البعض إن الاتجاهات الأبوية فى المجتمع (التى تعلى سلطة الرجل) كانت شرطا مسبقا ضروريا للثورة الصناعية إنهم يرون فى هذه الحضارة مايمكن وصفه بأنه تعبير عن عدوان للرجل على الطبيعة وعن اغتصاب البيئة .

الأمر الواضح ، وهو أن ثقافة التمييز بين الجنسين ، بشكلها المعاصر ، تحقق لها الانتشار عن طريق وسائل الاتصال الجماهيرى . لقد استخدمت هذه الوسائل لتبرير العسف الذى تلقاه المرأة ، ولإرغام المرأة على أن تبقى حبيسة عالم خاص مغلق ، ولكى تتعود المرأة على قبول ، بل عشق ، الحدود المفروضة عليها .

حتى النساء اللاتى دخلن اقتصاد الأجر المدفوع ، تم تصنيفهن فى قنوات الأجر المنخفض والوظائف الدنيا . أما المرأة التى بقيت فى البيت فقد أسبغ عليها الثناء لفضائلها النسائية ، وفى نفس الوقت كان ينظر إليها على أنها غير منتجة طفيلية ، رغم أن تربية الأطفال والقيام بالأعمال المنزلية كان لهما أثر حساس غير مباشر على الانتاج بصفة عامة .

وبشكل عام ، كان وضع المرأة هابطا ، إذا قيس بوضع القلة من النساء اللاتى تولين المناصب العالية فى دنيا الصناعة أو فى الأعمال الحكومية ، أو فى وسائل الإعلام .

حبوب منع الحمل .. وكيندى

● أين يقع هذا كله بالنسبة لفروضك عن انهيار الحضارة الصناعية

وبزوغ المجتمع الجديد ؟

ـ كان عام ١٩٥٦ هو أول عام تزايد فيه عدد العاملين فى المكاتب وفى الخدمة العامة على عدد عمال المصانع فى اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية .

وحول هذا الوقت شهدنا أول استخدام تجارى للكمبيوتر ، ونهاية عدد من المجلات ذات الانتشار الجماهيرى ، وزيادة الإقبال على المطبوعات الخاصة التى تخاطب فئات معينة ، شهدنا أول طيران نفاث تجارى ، وقمة فى حركة التحرر من الاستعمار فى جميع أنحاء العالم ، وعرفنا حبوب منع الحمل وسبوتنيك !..

تلك السنوات التى انتهت بالاضرابات فى بريكلى . واغتيال جون كيندى . لقد بدأت الأزمة العامة للمجتمع الصناعى ، أزمة قادت إلى العديد من الأشياء ، ومن بينها التساؤل حول كيان الأدوار الرئيسية خلال الحضارة الصناعية ، وتحدى هذه الكيانات .. أدوار المدرسين والطلبة والأطباء والمرضى ورجال الشرطة والقضاء والأهم من ذلك كله أدوار الرجال والنساء .

يقول شالمر جونسون أستاذ العلوم السياسية : إذا أردت أن تتبين الثورة الحقيقية ، لاتبحث عمن يستولى على القصر أو محطة الإذاعة ، ابحث عن أى تبدل أو تغير فى توزيع الأدوار .

لهذا فأنا أنظر إلى حركة المرأة الحديثة ، باعتبارها نضالا من أجل تغيير مواصفات الأدوار التى فرضتها الثورة الصناعية .. وهى بهذا الوصف ، جزء من الحركة التاريخية الكبرى التى تحملنا إلى ماوراء الحياة الصناعية التقليدية .

● ماهو إذن مستقبل العلاقات بين الرجل والمرأة ؟ هل ستبقى حضارة الموجة الثالثة على العلاقات التى تقوم على سلطة الرجل ، كما فعلت الحضارة الصناعية للموجة الثانية ، عندما حلت محل الموجة الأولى الزراعية ؟

ـ يجب أن نصوغ هذا السؤال بصورة أخرى .

فالحضارة القادمة ـ بطبيعتها ـ لاتحمل إلينا نموذجا وحيدا ، أو

نظاما نمطيا ، وإذا كنت محقا فى أن البناء الاجتماعى بأكمله يتشرذم ويعاد تشكليه على أساس التنوع فلا أظن أنه سيكون بإمكاننا أن نرى نمطا سائدا وحيدا فى العلاقة بين الرجل والمرأة . الأرجح أن نرى تنوعا عريضا فى توزيع الأدوار والترتيبات ، وتباينا فى تركيب المجتمعات ، لكل منها قيمته الخاصة ، وتوزيع أدوار متفرد غير المسبوق .

مستقبل متفائل للمرأة

● كنت أتوقع أن تؤكد اختفاء النظام الأبوى الذى يفرض سيادة الرجل مع مقدم الموجة الثالثة . لكن يبدو من كلامك أن التنوع الذى تحكى عنه يتضمن أيضا أشكال سيادة الرجل على المرأة .

ـ لم أقل فى أى مناسبة إن سيادة الرجل ستختفى ، وأن المساواة بين الرجل والمرأة ستتحقق بشكل كامل . لكنى قلت وأقول ، إننا سنشهد مجتمعات ستكون فيها أشكال العلاقة بين الرجل والمرأة مصدر فزع للتقليديين !

ومع كل ماتمر به حركة تحرير المرأة من نكسات ومع كل مايبديه المجتمع من تحيز بالنسبة لنطاق الوظائف التى يمكن للمرأة أن تحتلها ، ومع العدوانية التى تبديها الحكومات فيما يتصل بحقوق المرأة .. وبالرغم من ذلك كله ، هناك من العوامل مايؤكده التفاؤل فى الأجل الطويل .. وسندى فى هذا مايلى :

أولا ـ نحن نبتعد ، بشكل حاسم ، عن أى اقتصاد يقوم على القوة العضلية ، أو الجهد الخشن ، ونقترب من اقتصاد يقوم أساسا على قوة العقل ، هذا يستأصل نقيصة حاسمة من حساب المرأة .

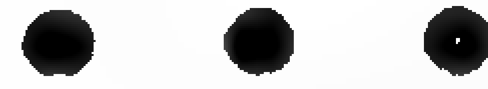
ثانيا ـ أصبح بمقدور المرأة أن تحقق مزيدا من التحكم فى عملية الحمل والولادة ، سواء بالنسبة لموعد الحمل أو عدد مراته ، بشكل أكثر سيطرة من أى وقت مضى .

ثالثا ـ نحن قد بدأنا إعادة الوظائف إلى البيت . لهذا فإن المرأة

التى ستضطر إلى البقاء فى البيت ، أو التى ترغب فى ذلك بإرادتها ، سيظل بإمكانها - إذا مارغبت فى ذلك - أن تشارك مباشرة فى اقتصاديات المبادلة والسوق ، بالعمل فى بيتها .

رابعا - الجيل الأصغر من نساء الغرب على الأقل ، وحتى أكثرهن محافظة وتقليدية يعتبرن أن من بين حقوقهن المكتسبة ، مدى واسعا من الأدوار الاجتماعية ، لم تكن تطمح إليه أمهاتهن أو جداتهن .. إنهن أكثر اعتمادا على أنفسهن .

وهذا فى حد ذاته يكون له انعكاسه على الشباب من الذكور ، فبعضهم يتمرد على التوزيع التقليدى للأدوار بين الجنسين والذى يعطى السيطرة للرجل .



باختصار ، نحن نرى أن التوجه الأساسى للتغيير الحالى يكون فى جانب المزيد من المساواة بين الجنسين .. فكل من الرجال النساء قد تغير . وهناك مجموعة من القيم تبزغ عند الأفق جنبا إلى جنب مع ترتيبات تكنولوجية واقتصادية جديدة . ولذلك نقول ، دون أن نتهم بالتفاؤل أن الحضارة الصاعدة تعمل فى اتجاه تحرير المرأة لأول مرة فى التاريخ .

الفصل العاشر

انتهاء سيادة الجنس الأبيض

لكل حضارة من الحضارات سماتها الخاصة فى توزيع السلطة بين الرجل والمرأة ، وبين الطبقات ، وبين الأجناس العرقية ، وربما بين الأقاليم المختلفة ، واليوم ، بينما تمضى الحضارة الصناعية إلى ذمة التاريخ ، ترتفع الأصوات بقوة مطالبة بمعرفة إذا ماكانت الحضارة البازغة تغدو مكانا للملايين بل البلايين من سكان الأرض ، الذين يعانون اليوم من ضروب التمييز العنصرى والذين يلاقون أنواعا من المضايقات والضغوط والقمع والإيذاء ، نتيجة لانتماءاتهم العرقية أو الجنسية أو القومية أو الدينية ؟..

هل سيبقى فقراء وضعفاء الماضى على حالهم يتطلعون إلى المستقبل ، كما هو حالهم الآن من وراء زجاج عازل ، ولايتاح لهم أن يشاركوا فى ذلك المستقبل ؟ .. أم هل سيجدون ترحيبا ومكانا لائقا فى الحضارة الجديدة التى تتخلق ؟

سؤال صعب ، بل لعله أخطر الأسئلة بالنسبة لطبيعة الحضارة القادمة .. ولنر ماذا يقول ألفين توفلر فى هذا الصدد .

● هل تعتقد أن الحضارة الجديدة التى تتصورها ستقود إلى إنهاء تسلط الجنس الأبيض على كوكبنا ، أم أنها ستدشن احتكار الجنس الأبيض ، وبعد إضافة مقعد لليابان عند رأس المائدة ، هل سيتاح لأجناس أخرى أن تجد لها دورا فى هذا المستقبل ؟

- كل من يفكر فى أن السلطة والثراء الاقتصادى سيكونان حكرا على الجنس الأبيض فى المستقبل ، فى وجود اليابان أو عدم وجودها ، سيصاب بخيبة أمل شديدة .

ولنبدأ ببعض التعريفات .

فى سياق الحياة اليومية ، مازال الناس يميلون إلى التفكير فى العالم باعتباره متكونا أساسا من البيض والسود والصفر والسمر ،

كما لو كانت الأعراق والأجناس أساسها مسألة لون ، وأن يضع تقسيمات كافية لشمول مدى التنوع الكامل للجنس البشرى .

الأسلم فى وصف العرق أو الجنس أن ينسحب على عدد من البشر يتميزون بمجموعة من الخصائص البيولوجية تظهر بتواتر أكبر مما تظهر فى باقى البشر .. مثال هذه الخصائص بناء الهيكل العظمى لون الجلد ، ملمس الشعر إلى آخر ذلك .

وهذا التقسيم يعتمد على الطريقة التى ننظر بها والمنطق الذى نطبقه . فقد قسم أحد العلماء الجنس البشرى إلى تسعة أجناس مختلفة ، ومع ذلك فقد بقيت لديه ٣٢ مجموعة من البشر لم يستطع أن يلحقها تماما بأى قسم من الأقسام التى حددها هناك . منطق آخر يعطى مايزيد علي مائتى تقسيم للبشر . وأعتقد أنه مع تطور معارفنا عن الخصائص الوراثية وتركيب الجينات ، سيتاح لنا أن نقسم البشر إلى ماهو أكثر من ذلك ، وعلى أسس لاندرى اليوم شيئا عنها .. مثل قابلية الإصابة بهذا المرض أو ذاك ..

المهم فى الموضوع ، هو أن مانفكر فيه باعتباره « عرقيا » ، يكون فى الأغلب اجتماعيا أو حضاريا . أضف إلى هذا أن استخدامنا لاصطلاحات من قبيل « الجماعة العرقية » أو « الدين » أو « القومية » ، يشوبه الكثير من التشويش والغموض .

الامبريالية والتمييز العنصرى

● لاشك أن هناك مشاكل جادة فى تحدي هذه التعريفات ، لكن هناك شبه اتفاق عام على ما اصطلحنا أن نطلق عليه « العرق » أو « العنصر البشرى » ، والسؤال الأهم هو : هل سيكون المستقبل الذى نطرحه تحت سيطرة وتحكم الرجل الأبيض ، أم لا ؟ .. وإذا كانت الإجابة لا ، فلماذا ؟ ..

ـ لا أعتقد أننا فى حاجة إلى نقاش طويل حول حقيقة أن عالم اليوم يسيطر عليه الجنس الأبيض بشكل أساسى . القوتان العظميان ،

العملاقتان اقتصاديا ، تقعان فى النصف الشمالى للكرة الأرضية ، وهما تتشكلان من أغلبية بيضاء ، والحكم فيها للرجل الأبيض .. والبعض يتصور أن هذا هو الوضع الطبيعى للحياة .

ومع ذلك ، فإن تحكم الرجل الأبيض فى أجزاء كبيرة من الكرة الأرضية ، يعتبر من التطورات الحديثة تاريخيا ، والتى بدأت مابين ٣٠٠ و ٤٠٠ سنة مضت ، وهو وضع آخذ فى الانحسار .

ولو تصورنا أن أسلافنا ألقوا نظرة على تاريخ البشر فى الألف سنة الماضية ، فمن حقهم أن يعتبروا المئات الأخيرة من السنين « مرحلة الرجل الأبيض » .

بدأت هذه المرحلة عندما تحرك الأوربيون خارج قارتهم .. عندما اكتشفوا العالم الجديد . واخضعوا قسرا الهنود الحمر ، السكان الأصليين . واستولوا على الأمريكتين .. وأيضا عندما اكتشفوا طريق التجارة إلى الهند ، والتفوا حول العالم الاسلامى ، وسيطروا بشكل أساسى على البحر الأبيض المتوسط ، واصلوا طريقهم لاستعمار أسيا وأفريقيا ، وقاموا بتوسيع نطاق تجارة العبيد السود .

وفيما بعد ، عندما اكتسبت حركة التصنيع الأوربية دفعها ، تضاعف مع ذلك الاندفاع نحو الاستيلاء على المستعمرات ، واستطاع الأوربيون أن يقيموا سلسلة من المجتمعات المستنزفة ، التى تضخ منها أوربا ماتحتاج إليه من طعام رخيص ، وطاقة ، ومواد خام ، لمواجهة الاقتصاد الأوربى المتوسع .

قد يبدو هذا الطرح مضغوطا وإجماليا ، لكنى قد ناقشت هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابى « الموجة الثالثة » موضحا الطريقة التى خدم بها الاستعمار حاجات الدول الصناعية ، رأسمالية واشتراكية .

نكسة الزحف الأبيض

على أى حال ، هذا الدور الذى لعبته الموجة الثانية فى أنحاء العالم

كان لحساب التوسع الصناعى ، لكن هذا كان يعنى أيضا تحديا لعالم الأجناس غير البيضاء .

وأول نكسة لهذا الزحف الأبيض ، جسدها حادث حاسم فى تاريخ العرقية فى العالم ، وإن كان قد جرى تجاهله تماما فى الكتب المدرسية الأمريكية .

ذلك هو حادث الهزيمة العسكرية التى منى بها الروس على أيدى اليابانيين فى عام ١٩٠٤ . فعلى مدى عدة قرون ، كانت هذه هى المرة الأولى التى تتلقى فيها قوة أوربية كبرى لطمة من دولة غير بيضاء . لقد بعث هذا تيارا نابضا من الفخر العنصرى فى أنحاء القارة الأسيوية حتى أن مثقفى الصين مضوا يكتبون الأشعار يتغنون فيها بهذا النصر .

هل كان الفوز اليابانى مسألة عنصرية فى أساسها ؟ . أم الأمر أمر مداخن ومدافع رشاشة ؟

كانت اليابان فى ذلك الحين ، فى طريقها إلى أن تصبح قوة صناعية ضمن الموجة الثانية . وبعد ذلك بقليل ، بدأت اليابان نفسها تلعب نفس لعبة الأستعمار المرتبطة بالموجة الثانية ، مع شىء من التحوير . فعندما استولت اليابان على أسواق جديدة ، ومواد خام ، من الصين وكوريا وغيرهما ، أعلنت أنها تفعل ذلك لتحمى هذه الدول من استعمار الرجل الأبيض !.. وقد واصلت اليابان ترديد هذا خلال الحرب العالمية الثانية .

● إنك تضع ثقلا كبيرا على الاقتصاد ، فى مقابل الاعتبارات الثقافية الحضارية هل تريد الإيحاء بأن موضوع العنصرية يعتبر أقل أهمية ؟..

ـ لا .. بتاتا .. لاأريد الإيحاء بأن قضية العنصرية هى نتاج الاقتصاد دائما . فقد كانت كذلك فى بعض الأحيان ، أنا أعى تماما أنها كانت أيضا ، فى أغلب الأحيان فرض عقيدة دينية أو ثقافية أو حضارية ، وخلق أحساس بالنقص لدى الشعوب الخاضعة للاستعمار ، أنا لاأقلل

أبدا من أهمية الأحساس العنصرى فى عالم اليوم ، خاصة بعد أن أوقظ بشدة فى أعقاب قرون من أمبريالية الرجل الأبْيض .

الصعود الدرامى للقوى العربية

● أنت تقول إن هذه الحقبة تصل اليوم إلى نهايتها ، وتربط بشكل مابين بداية « حقبة الرجل الأبيض » ومقدم الصناعة . هل تسعى إلى القول بأن مقدم الموجة الثالثة يعتبر بداية لانقضاء تلك الحقبة ؟

ـ قد لاأقول بهذا المستوى من السببية ، لكن من المفيد ملاحظة أن الفترة مابين عامى ١٩٥٥ و ١٩٦٥ ، عندما بدأت الموجة الثالثة خطواتها فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت أيضا قمة انحسار الاستعمار فى العالم . ففى تلك السنوات العشر حصلت العديد من المستعمرات على استقلالها السياسى . وقد شهدنا منذ ذلك التاريخ نضالا متصاعدا ، وفخرا عنصريا من جانب بلايين البشر حول العالم ، والذين كانوا من قبل خاضعين للقوى الأوربية أو الأمريكية أو السوفييتية أو اليابانية .

مظاهر هذه الكرامة الجريحة لايمكن أن تحصى أو تعد ، إبتداء من حق استخدام العنف ، وحتى حق استخدام اللغة ، وعلى سبيل المثال ، احتجت أخيرا الجمهورية الشعبية المنغولية على استخدام تعبير (منغولية) فى معرض الإشارة إلى المرض الذى يعرف بإسم « ظاهرة دوان » لقد شعر المنغوليون بوضوح ـ الأمر الذى لم ندركه نحن ـ بأن التعبير ينبع بالتحديد من انتقاص عنصرى (عندما تحدث دكتور دوان فى ستينيات القرن الماضى عن ضحايا ذلك المرض ، وصفهم بقوله « بلهاء منغوليون » على أساس أن مرضهم يتصل ـ نوعا ما ـ « بجنس متخلف ») .

وقد حدث أيضا تحول آخر فى التوزيع العنصرى للقوى العالمية بعد الصعود الدرامى للقوتين المالية والسياسية العربيتين ، فى

السبعينيات وبداية الثمانينيات . ورغم أن هذا الصعود قد تجاوز قمته . وبدأت مرحلة من الهبوط نتيجة لضعف (أوبيك) وإساءة تنفيذ استراتيجيات التنمية ، فإنه من غير المحتمل أن نعود ثانية إلى الوضع الأسبق لقد أصبح ممثلو العرب جزءاً من بناء القوى العالمية ؛ وسيظلون كذلك .

أضف إلى ذلك الصعود الدرامى لليابان وتايوان ، وهونج كونج وسنغافورة ، وكوريا الجنوبية ، فى السنوات المتسارعة فى معظم دول شرق آسيا ومنطقة الباسفيكى ، هذه الحقائق التاريخية الجديدة توحى بأن شعوب آسيا والباسفيكى ستشارك قريبا ، كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وأوربا ، فى التأثير العالمى .

الكمبيوتر والأقمار الصناعية

ومع انتشار الكمبيوتر فى آسيا ، ومع تطوير الصينيين (فى الداخل والخارج) لنظام خاص بهم فى معالجة الكلمات الكترونيا .. ذلك النظام الذى يتيح التعامل مع لغتهم الأيدجرافية (أى التى تكون الوحدة فيها مماثلة بشىء أو فكرة بعكس الحرف عندنا) . ومع قيام أقمار الاتصال الصناعية ببث واستقبال المعلومات فوق مناطق من الباسفيكى كانت معزولة فيما مضى ، ومع قيام علماء الهند وسنغافورة بكتابة برامج الكمبيوتر ، لكى تستخدم فى مانهاتن ومينابوليس فى الولايات المتحدة الأمريكية .. مع كل هذا يغلب أننا سنرى تيارا قويا من التأثيرات المالية والثقافية والحضارية وغيرها ، قادمة من الشرق إلى الغرب .

وحتى الآن مازالت بعض الدول النامية تخشى الكمبيوتر وتتصور أنه سيضفى طابعا غربيا على ثقافتهم . لكن العكس يمكن أن يتم فإن طرقنا فى التفكير والتصميم بالنسبة للكمبيوتر أو لبرامجه قد تأخذ طابعا مختلفا ، لو أن الثقافات غير الغربية دخلت ذلك الميدان .

ورغم أن حصيلة مايجرى ليست واضحة حاليا ، فإن حقيقة التغيير

لايمكن إنكارها .. إن مركز التأثير العالمى فى مجالات الاقتصاد والثقافة يتحرك ، لم تعد الأعمال المصرفية مركزة بشدة فى لندن أو نيويورك أو زيوريخ .. ومدينة مكسيكو سيتى ، بالرغم من كونها بؤرة تلوث وازدحام ، فإنها أكثر حيوية من الناحية الفكرية ، من عدة عواصم أوربية ، إنها تزدحم بالفنانين ، واللاجئين السياسيين والمفكرين .. ولعل أفضل الأعمال الروائية فى العالم مايفد من أمريكا الجنوبية .

خريطة توزيع السلاح

وهناك عاملان ماديان آخران يعملان فى الأغلب على الإسراع فى تشتيت وشرذمة القوى العالمية . أحدهما مايحدث من تغيير فى خريطة توزيع السلاح فى أنحاء العالم ، ونحن هنا لانبحث فى أسباب ومخاطر هذا ، لكن الأمر الواقع يقول إنه حتى الحكومات الصغيرة للغاية . أصبحت الآن تملك أسلحة مميتة جدا ، مما يعنى أن بإمكانها الرد على أى هجوم .. وهو وضع غريب وجديد . لم يكن ليحدث طوال حقبة سيطرة الرجل الأبيض .. مسألة السلاح هذه ستؤدى ـ خيراً أم شراً ـ إلى تغيير توازن القوى العالمى .

وأخيرا . هناك نقطة أساسية غالبا مايجرى اهمالها . أعنى بذلك الموارد . فالنظام الحالى ، الذى مازال يقوم على حاجات الانتاج على النطاق الواسع للموجة الثانية ، يعتمد على عدد قليل من الموارد يتم استخدامها بكميات هائلة . وانتشار أساليب الصناعة المتشرذمة المتنوعة النابعة من الموجة الثالثة . ومع الاتجاه فى الإنتاج إلى اللامركزية ، سنحتاج إلى موارد مختلفة أكثر تنوعا ، وربما بكميات أقل . وهذا يعنى المزيد من إعادة التوزيع للقوة الاقتصادية على سطح الأرض بطريقة جذرية .

وعلى هذا يمكننا أن نرى على مختلف المستويات ، وبشكل متزامن عملية إعادة توزيع تاريخية للنفوذ والسلطة فوق كوكبنا .

وأنا أعرف أن بعض تصوراتى هذه هى مجرد تأملات ، ولكن بالنسبة للاجابة عن سؤالك الأصلى ، لاأعتقد أن باقى شعوب كوكب

الأرض ستكون مستبعدة فى حضارة الموجة الثالثة ، أو أن المستقبل سيخص جنسا بعينه أو عنصرا بذاته .

أشباه الحكومات فى أفريقيا

● فى كل هذا الحديث ، ألاحظ أنك لم تذكر كلمة واحدة عن أفريقيا .. لماذا ؟

ـ لأن معرفتي عنها أقل مما يجب . ومع ذلك يمكنني تصور أن أفريقيا ستواجه أصعب العقبات جميعا .. بسبب الأنماط السياسية الخرقاء التي فرضت وتفرض عليها من جانب القوى الامبريالية للموجة الثانية .. أشباه حكومات قومية مفروضة على أوضاع قبلية . أشباه مجالس نيابية ، وأشباه جامعات مثل اكسفورد والسوربون .

وإذا أضفنا إلى ذلك الضغائن الدفينة التى يثيرها العنصريون فى طرفها الجنوبى ، ودلالاتها الاستراتيجية الفادحة . ستكون أفريقيا ملعبا مختارا لمناورات القوى العظمى والحرب التى تثار بالتوكيل والتفريض من أنجولا إلى رأس الرجاء ، لحساب القوى الامبريالية .

● إنك ترسم عالما يتأجج بالتغيير ، تهبط فيه القوة المركزية للدولتين العظميين ، أمريكا وروسيا ، وتنمو فيه قوى الشعوب المقهورة .

ـ لاأميل إلى تصوير الوضع على هذه الصورة .

القهر مسألة أخرى ، فمن الواضح أن الملايين من الشعوب التى خرجت من ربقة الاستعمار يتم حاليا قهرها ، وبشكل متوحش ، على أيدى حكامها من بنيها ، إن القهر مسألة منفصلة ، الموضوع الذى أناقشه هو ما إذاكان الوضع الحالى للقوى العالمية ، بكل مافيه من اهتزاز ، يمكن أن يعتبر متوازنا .. هل يمكننا أن نتحول من عصر الصناعة إلى حضارة الموجة الثالثة الجديدة ، ونتوقع أن يبقى نفس التوزيع الحالى للقوى بين المناطق والأجناس ؟ .. أعتقد أن الإجابة هى : لا ..

● ألا تثير مسألة توزيع القوى على الأجناس البشرية مشكلة خاصة للولايات المتحدة الأمريكية ؟ .. ليس فقط مشاكل اقتصادية . ولكن مشاكل ثقافية وحضارية فى نفس الوقت ؟ .. هل يمكن للأمريكيين

الغارقين فى التقاليد العنصرية المعتادين على وضع القوى العظمى هل يمكنهم أن يعتادوا فكرة مشاركة القوة فى عالم الموجة الثالثة ؟ هذا فى الوقت الذى لايبدو فيه عليهم أنهم يقبلون تقاسم السلطة مع الأجناس البشرية الأخرى ، والأقليات العرقية المختلفة داخل أمريكا ؟.

- على الأمريكيين والسوفييت أيضا ، أن يعتادوا التوزيع الجديد للقوى العالمية فى السنوات العشرين أو الثلاثين القادمة ، بالضبط كما تعودت بريطانيا وفرنسا على فقدان امبراطوريتيهما . قد يشكل هذا لطمة سيكولوجية وثقافية ، وبالطبع اقتصادية أيضا ، خاصة أن الخيلاء الثقافى والخيلاء الأقليمى مازالا يشكلان ملمحا أساسيا من الملامح الأمريكية .

وعلى قدر مافى السجل الأمريكى من عفونة فهو لايختلف عن سجلات الدول الأخرى بل هو يفضلها من بعض الزوايا ، فالأمريكيون قد قاموا ، على الأقل بكثير من البحث العلنى والمخلص حول سؤال العنصرية ، فى الوقت الذى لانسمع فيه حتى مجرد الاعتراف بأن المشكلة قائمة بالنسبة لبعض الدول الأخرى .

وعندما اندلعت الاضرابات فى هارلم وواتس . وغيرهما من المجتمعات السوداء فى الستينيات . أذكر أن وسائل الإعلام الانجليزية أبدت نوعا من السرور المبطن بالخبث والشماتة تجاه سوء الحظ الذى تلقاه أمريكا ، كما لو أن العنصرية لم يحدث أن أطلت بوجهها القبيح على بريطانيا .

ومظاهر التمييز العنصرى واضطهاد الأقليات نرى شواهد لها فى بريطانيا وفرنسا وألمانيا واليابان .

أنا لا أقول هذا كله لكى أبرز الأوضاع فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن لكى أوضح أمرا أساسيا هو أن العنصرية تنتشر أوسع انتشار ، وأن جذورها عميقة فى كل مكان ، وعندما أقول العنصرية فأنا أعنى اضطهاد الأقليات والثقافات والحضارات المغايرة بالمعنى العريض .

الفصل الحادى عشر

الاضطهاد العنصرى ..
هل يستمر ؟

فى جميع كتابات ألفين توفلر ، يقدم أفكاره من خلال نظرة شاملة يحاول فيها أن يدخل فى الاعتبار العديد من العوامل التى غالبا مايجرى تجاهلها لدى الذين يقومون بالتحليل الاجتماعى ، ولكن ـ كما رأينا عند طرح موضوع التفرقة بين الرجل والمرأة ـ هانحن ، عند مناقشة موضوع التفرقة والتمييز العنصرى بالنسبة للأقليات العنصرية والثقافية والدينية ، نرى أنفسنا فى مواجهة مجموعة من المواقف والعلاقات الاجتماعية التى بقيت على حالها بإصرار عبر كل موجات التغيير الاقتصادية والتكنولوجية .

فكيف يوفق توفلر بين هذه الحقيقة ، وبين نظرياته فى التغيير ؟.

ـ فى رأيى أن كل أشكال التمييز العنصرى والعرقى والدينى وغير ذلك من أشكال التمييز ، نجد جذورها فى حاجة الفرد ، أثناء تطوره ، إلى بعض أشكال الانتماء إلى جماعة . فالجماعات التى استطاعت أن تحقق درجة من التلاحم يمكنها أن تعيش أفضل من التى لم تحقق هذه الدرجة من التلاحم ..

كل المجتمعات يكون لديها ما أسميه « النطاق النفسى » أو « المجال النفسى » الذى يحيط بأفكار ذلك المجتمع ويعمق هويته . لذلك فإن فكرة « الأنتماء » أو « المجتمع » ومسألة التماهى مع الآخرين ، أو رؤية الذات فيهم ، هى جزء هام وأساسى من المادة اللاصقة ، التى تلم عناصر كل النظم الاجتماعية الإنسانية . لكنى أعتقد أن هذا لاينفى مفعول موجات التغيير التى أناقشها . فمع كل موجة تاريخية من موجات التغيير شاهدنا تغيرات ثورية فى طبيعة الفرد وفى شخصية الجماعة .

فخلال عشرة آلاف سنة من سيادة الزراعة على كوكبنا إبان فترة حضارة الموجة الأولى ، وجد الأفراد هويتهم بشكل قوى فى الأسرة أو القبيلة أو القرية أو الدين ، أو فى غير ذلك من التجمعات التى كانت تأسر الفرد منذ ولادته .

كنت تولد فى أسرة وضمن جماعة عرقية وتعيش حياتك كلها فى القرية التى ولدت فيها ، وكان الدين الذى تعتنقه يُفرض عليك من والديك ومن المجتمع المحلى . ذلك الاعتناق الذى كان نادرا ما يقابل بالتحدى على مدى سنوات حياتك . وهكذا ، فإن معظم الولاءات والانتماءات الأساسية بالنسبة للفرد والجماعة تتعين عند الميلاد . لم يكن أمام الفرد إلا القليل من الاختيار ، وفى أغلب الأحيان لم يكن له حتى ذلك القليل ، كما أن هوية الجماعة كانت تظل عادة ثابتة خلال عمر الفرد كله .

الانتماء للدولة
بدلا من القرية

وعندما دفعت الثورة الصناعية بموجة التغيير الثانية عبر الأرض ، بقى الاحتياج إلى الانتماء لكن تغيرت بشكل ملحوظ طبيعة الفرد وانتسابه إلى الجماعة . الآن بدلا من الانتماء إلى قريتك ، يتم تشجيعك على أن تنتمى إلى دولتك ، هذا إلى جانب أن الوعى الطبقى أضاف شكلا آخر من أشكال الانتماء ، فقد أنتج تقسيم العمل تجمعات جديدة تماما . لقد أضافت الموجة الثانية من موجات التغير « قشرة » أو « شريحة » جديدة بالنسبة لعملية الانتماء . فمع بقاء العديد من الانتماءات القديمة ، قد جرى بينها نوع من التكامل فى إطار الشريحة الجديدة ، ليتشكل ما يمكن ان نطلق عليه مواصفات الانتماء . بعض الانتماءات القديمة فقدت قوتها العاطفية ، فى الوقت الذى كسبت فيه انتماءات أخرى دفعا جديدا .

عندما مزقت الموجة الثانية وظيفة الأسرة ، أضعفت الروابط العائلية ، فالمسئولية عند كبار السن انتقلت من الأبناء إلى الدولة وقويت الروابط القومية ، فى الوقت الذى ضعفت فيه الروابط المحلية وهكذا . ولكن ، وللمرة الثانية ، بقيت الانتماءات السائدة فيما لايتصل بالروابط الوظيفية ثابتة .. أو خاضعة لارتباطات الميلاد .

التغييـــر يـــؤثـر
على مفهوم الأقلية

والآن ، تقبل الموجة الثالثة ، وهى أيضا ستعمل على تغيير طبيعة الانتماء وأعتقد أنها ستقوم بهذا عن طريقين أساسيين :

أولا : إذا ماكنت على حق فى أن التحول يمضى نحو المزيد من التنوع ونحو المزيد من المجتمعات المتباينة ، يكون علينا أن نتوقع المزيد من تنوع الانتماءات والتجمعات . وهذا هو مايحدث الآن بالتحديد .

الأمر لايقف عند حد تشرذم الجسم السياسى للولايات المتحدة الأمريكية ، وغيرها من الدول ذات التكنولوجيا المتقدمة ، إلى المزيد من الأجزاء ، ولا أن تصبح سوق الاستهلاك أكثر تعبيرا عن حاجات الأفراد والجماعات الأكثر تنوعا ، ولا أن ينفصل العديد من الثقافات الفرعية عن القيم السائدة للأغلبية .. بل أن الأمر سيتجاوز هذا كله إلى أن تعمل نفس عملية الطرد المركزى هذه داخل الأقليات نفسها . التجمعات الفرعية ، سواء كانت عنصرية أو عرقية أو دينية فى كل مجتمع ستنقسم هى أيضا وتتشرذم إلى مجتمعات أصغر وأكثر تنوعا تكون معبرة عن هوية الأفراد بطريقة أكثر فاعلية . لم يعد عمليا أن نتحدث عن السود فى أمريكا كجماعة متجانسة ، أو عن المهاجرين من أمريكا اللاتينية ككيان واحد .

والتغيير يصل ، فى حقيقة الأمر ، حتى إلى ذات مفهوم ماتقوم عليه الأقلية المترابطة سياسيا ، الفروق التى كانت تبدو هامشية بدأت تأخذ دلالة ثقافية وسياسية ، فليس من قبيل الصدفة أننا قد بدأنا نشهد تنظيمات مناضلة تمثل جماعات ككبار السن والمعوقين ، والشواذ جنسيا وغيرها ، ذلك من الجماعات التى تشعر أنه قد أسيئت معاملتها من المجتمع الكبير . بدأت فى الظهور جماعات جديدة ، تعبر عن الهوية الخاصة المحددة للإنسان . وهذه العملية الاجتماعية

النشطة ستتسارع بالقطع مع تشرذم وسائل الإعلام الجماهيرى ، والمنشورات المعبرة عن المصالح الخاصة ، ومع شيوع تليفزيون الكابل ، وانتشار الاستقبال المباشر من الأقمار الصناعية والتوسع فى اقتناء مسجلات الفيديو .. إلى آخر هذه المستحدثات .

انتماءات مرحلية

والأكثر من هذا أن ارتباطات الفرد بحكم المولد يصبح أقل فأقل ، كما تصبح أمامه اختيارات أوسع لتحقيق ذاته .

بالطبع ، كلنا مازلنا نولد وسط عائلات وبين جماعات عرقية .. إلى آخر ذلك ، ولكن من الواضح أنه مع اندفاع الموجة الثالثة سيتاح للعديد من البشر احتمالات أوسع فى الاختيار ، تتوافق مع زيادة الفردية والتنوع فى البناء الاجتماعى الجديد .

أضف إلى ذلك أن مقدم الموجة الثالثة يرتبط أيضا بالتسارع الملحوظ فى معدلات التغير الثقافى والاجتماعى ، ومن ثم فالاختيارات التى ينتمى إليها الناس أميل إلى أن تصبح أكثر مرحلية أيضا ، فنرى الفرد يتبنى أجزاء من هويته ويصرف النظر عن أخرى ، بمعدلات أسرع من أى وقت مضى .

وسيغطى هذا على شريحة الانتماء العنصرى أو العرقى القديم ، والتى يفترض أنها أعمق تكوينا . لكل هذه الأسباب ، أعتقد أنه من السليم القول بأن مقدم الموجة الثالثة سيؤدى فعلا إلى تغيرات نوعية ، حتى فى أقدم المشاكل البشرية ، مشكلة الهوية والانتماء .

لاشىء يبقى على حاله

● دعنا ننتقل من النظرية إلى الواقع ، رغم التغيرات التى وصفتها ، يبدو أن قوة العنصرية بمعناها العريض ، لم يلحق بها أى انتقاص ، ومع مقدم الاقتصاد الجديد الذى تشير إليه ، ألا ترى أن الاقليات

ستلاقى أوقاتا أصعب فى بحثها عن عمل أمين ؟ ألا نجازف بمواجهة المزيد من مخاطر تزايد حجم الطبقات المعدمة ، التى توجد حاليا فى جميع الدول ذات التكنولوجيا المتقدمة ؟ .. وإذا عدنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال . بما فيها من عدم مساواة فى الدخول والمعارف ، ألا يكون الوضع القادم أكثر مشقة أمام الشاب الأسود أو القادم من أمريكا اللاتينية فى الحصول على عمل ، إذا ماتواصلت حركة الاقتصاد الأمريكى الدائبة نحو الكمبيوتر والألكترونيات ، وغير ذلك من صناعات الموجة الثالثة ؟

ـ هذا السؤال يتصل بالسياسة الاجتماعية وليس بالتكنولوجيا ، وأنا لا أزعم أن لدى العلاج السحرى لمشكلة البطالة أو الاضطهاد العنصرى والعرقى ، لكن لاشىء يبقى على حاله ، والفوضى السياسية الحالية لايحتمل أن تستمر ، وكل هذا يتوقف على الطريق التى سنتصرف بها حيال هذا .

إذا ماسمحنا بإلقاء العبء الكامل للتغيرات البنيوية فى اقتصادنا على عاتق أولئك الذين هم أقل استعدادا للتعامل معها ، فإننا بذلك ندفع المشاكل بعيدا عن الكونجرس والقضاء إلى الشوارع !..

السياسات الحكومية الحالية ، حتى تلك التى توصف بأنها « يسارية » تقلل من شأن الخطر بطريقة مأساوية ، إننا نبنى خطوة بخطوة ، الظروف المؤدية إلى تفجر الفوضى المدنية ، وإلى حالة من عدم الاستقرار السياسى التى لايمكن مواجهتها طويلا . سيتحول الناس من الدفاع إلى الهجوم ، إذا ماوجدوا ظهورهم إلى الحائط .. ونحن نعيش فى حقبة يمكن فيها ، حتى لأصغر الجماعات ، أن تصبح مخربة للغاية بمجرد أن تعقد العزم على ذلك .

وأنا لاأتوقع تكرارا آليا لما حدث فى الستينيات مثلا ، عندما أعلنت الأقليات المضطهدة حربها ، لكن إذا ماأصبحت الظروف باعثة على اليأس ، فإن ردود الفعل قد تقود إلى ماهو أسوأ .. يمكننى أن أتصور انفجارات عنف عفوية ، وإرهابا منظما للغاية ، بالاضافة إلى غير ذلك من أهوال .

الاختفاء المفاجىء
للاستقرار السياسى

انظر .. إن الموجة الثانية تتآكل ، الوظائف المعتمدة عليها تتناقص ، أو تنتقل إلى دول العمالة الرخيصة ، والموجة الثالثة فى صعود ، فاتحة الباب لوظائف جديدة ، أما عدد الوظائف التى ستتوافر ، فهذا متوقف على مدى ذكاء التخطيط الذى تقوم به الحكومات ، ودوائر الأعمال للعبور إلى الحضارة القادمة .

وإذا ماأبدى هؤلاء غباء ، فالأرجح أن نواجه متاعب جمة ، تتسم بالعنف والفوضى .

أما الآن ، ورغم معدلات البطالة فمازالت الشوارع تعيش فى سلام نسبى ، ذلك لأن بطالة اليوم ليست كبطالة الجيل الماضى . فهناك على الأقل الحد الأدنى من المساندة للعديد ممن يعانون البطالة ، وهناك أيضا قدر كبير من الذين يقومون بوظيفتين ، أو الأسر التى تعتمد على دخل فردين منها . هناك درجة من مقاسمة الوظيفة الواحدة ، وقدر كبير من العمل بعض الوقت .

لكن إذا ماساءت الحال إلى درجة كبيرة يمكن أن يختفى الاستقرار السياسى فجأة ، وحتى أكثر السياسيين ورجال الأعمال غرقا فى ظلمة الجهالة ، يشعرون بذلك ، وإذا كان مايشغل بالهم هو أن يتكرر ماحدث فى الثلاثينيات ، فإنهم لم يدركوا ـ بعد ـ أن كل شىء قد تغير إلى درجة أن أشكال الاحتجاج والاعتراض ستصبح أكثر تنوعا ، وأكثر لامركزية ، ويصعب التنبؤ بها ، ويكون الأصعب منه محاولة كبتها .

ونصيحتى هى : أعطوا اهتماما خاصا للأقليات ، جميع أنواع الأقليات ، بما فى ذلك أقل الأقليات عددا ، فهذا هو مصدر الألم الأكبر حاليا . وهو أيضا مصدر الصراعات العظمى فى المستقبل .

الخطأ القاتل

● وماهى النصيحة التى تقدمها لقادة هذه الأقليات ، والأقليات الأصغر ؟ وماهى الاستراتيجيات التى يجب عليهم أن يلتزموا بها فى رأيك ؟

- الخطأ القاتل بالنسبة لقادة جماعات الأقليات اليوم هو تقليد ونقل نفس الخطأ الذى يقع فيه كبار رجال الأعمال وقادة الحكومة ، وهو الفشل فى النظر إلى الأمام .

الاستراتيجيلت القديمة ، والأوضاع السياسية القديمة والتناولات القديمة ، لم تعد صالحة للتطبيق . ومالم تسع السياسات الجديدة إلى تقييم نفسها على أساس المستقبل ، فإنها ستواجه طريقا مسدودا .

لو كنت مكان هؤلاء القادة لأعطيت اهتماما خاصا لقطاع الموجة الثالثة فى الاقتصاد . فقد يكون من الأسهل الحصول على مكاسب معينة - كبرامج التدريب مثلا - فى القطاع الاقتصادى النامى للموجة الثالثة ، من الحصول على شىء من قطاع الموجة الثانية المنكمش .

وهذا يعنى دراسة متأنية لعملية إعادة البناء الخفية وراء الزلزال الاقتصادى الذى يكتسب دفعا فى الدول التكنولوجية المتقدمة . دراسة التحول إلى صناعات جديدة مثل الكمبيوتر ، ووسائل الاتصال المتطورة ، أو إلى أحدث الخدمات فى ميادين كالصحة ، أو إلى الصناعات المساندة مثل الالكترونيات الطبية ..

ويعنى أيضا الإقرار بالتحول طويل المدى نحو الانتاج المحلى والأقليمى ونحو شرذمة الانتاج وتنوعه ، الأمر الذى بدأت تظهر معالمه بالفعل ، كما يعنى الاقرار بمغزى الانصراف عن المدن الكبرى ، والمدن المتوسطة ، والتوجة حيث تتوافر وظائف الموجة الثالثة . أو ربما يعنى العمل على خلق وظائف نابعة من الموجة الثالثة ، فى الأماكن والقطاعات التى تتأزم فيها مشكلة البطالة .

وكذلك يعنى أن وظائف عديدة فى الانتاج على نطاق واسع ستختفى ، وليس فقط تلك التى يشغلها الآن عمال من الأقليات . والإقرار بهذا يقتضى أن توضع اليد فى اليد حرفيا ، فى محاولة لابتكار خدمات جديدة وبضائع جديدة والبحث عن أسواق لها .

ويعنى أيضا تكثيف الضغط السياسى ـ قدر الامكان ـ على السلطات المحلية بصفة خاصة ، وكذلك على سلطات الولاية والسلطات الإقليمية ، بدلا من تركيز الضغط على السلطات المركزية فقط ، وذلك من أجل الحصول على دعم لهذه السياسات ، وعلى الميزانيات اللازمة لعبور الأزمة .

وفوق هذا كله يعنى أن تكون الأولوية المطلقة فى أى برنامج شامل للتدريب .. ثم المزيد من التدريب .. ثم أيضا المزيد من التدريب .. مع الاهتمام بتعليم الصغار .

خصائص الفرد فى الموجة الثالثة

ليست الأقليات وحدها هى التى ستلاقى المتاعب مع زحف الموجة الثالثة ، فنحن جميعا مواجهون بثقافة جديدة تماما . أمامنا جميعا العديد من الأشياء التى يجب أن نتعلمها ونتدرب على القيام بها .

فى الموجة الثانية كانت هناك ثقافة جماهيرية ، وكان المفروض أن يتوافق الجميع معها ، لكن فى زمن الموجة الثالثة لاتوجد ثقافة واحدة ، بل تنوع دائم التغيير من الثقافات الجديدة ، الأمر الذى قد يصعب على أى منا أن يعقله ، سواء كان من الأقليات أو من غير الأقليات . وكلما تحركنا أكثر ناحية اقتصاد الموجة الثالثة ، أصبحت الثقافة أكثر أهمية ، فالعديد من الوظائف فى الصناعات الجديدة يعتمد على الثقافة بطريقة لم تتحقق من قبل . الاقتصاد الجديد يدفع الأجور فى مقابل المهارة فى معالجة الرموز والتصورات والتجريدات ، يدفع فى مقابل القدرة على الحديث المنطقى والوضوح المنطقى ..

يدفع فى مقابل قدرات كان ـ ومازال ـ الطلب عليها قليلا ، والمدفوع فيها زهيدا ، خاصة فى شعوب الأقليات ، التى مازال الكثير منها أقرب إلى جذوره الزراعية السابقة لعصر الصناعة .

كان الاقتصاد القديم فى عصر الموجة الثانية يدفع فى مقابل خصائص ومزايا معينة : القدرة على ضبط الوقت والالتزام به ، الطاعة لسلطة وحيدة مركزية ، فهم الطريقة التى يعمل بها النظام البيروقراطى ، الاذعان لحياة كاملة من العمل الآلى المتكرر .

والاقتصاد الجديد للموجة الثالثة يدفع أيضا فى مقابل خصائص ومزايا معينة فى الانسان . إنه يدفع بسخاء للمهارات التى تعتمد على المعرفة والتعليم ، والقدرة على سرعة التكيف بالتغييرات . يدفع للذين يحققون درجة عالية من المرونة ، القادرين على العمل تحت قيادة أكثر من رئيس ، والقادرين فى نفس الوقت على التصرف كرئيس . يدفع كثيرا للأشخاص المحبين للاستطلاع كثيرى السؤال الشغوفين بمعرفة مايجرى و القادرين على التأثير فيه .. إنه يدفع لأشخاص قد لاتتوافر لديهم مهارة التخصص على مدى الحياة فى جزئية محدودة ، ولكن تتوافر لديهم خبرات عديدة فى مجالات مختلفة بحيث يمكنهم نقل الأفكار من مجال إلى آخر ..

الحضارة الجديدة تفرد مكانا فيها للذين يجيدون التوفيق والعمل كوسطاء . يستطيعون التحرك من جانب لآخر بين التنظيمات المتصارعة ، يستمعون إلى كل طرف ، وينقلون تفسيرا لموقفه إلى الطرف الآخر . هى حضارة تفضل المبادرة والفاعلية وتحتاج إلى أصحاب الأحلام الخلاقة بأعداد أكبر من ذى قبل .. باختصار هى حضارة تفضل بشكل حاسم أولئك الذين يتطلعون إلى المستقبل على أولئك الذين يعيشون فى الماضى .

فرص لكل عنصر ودين

ولاتوجد جماعة عنصرية أو عرقية .. لايوجد دين أو قومية ، يمكن

أن تحتكر هذه الخصائص والمزايا الجديدة .. كل ثقافات العالم تتقدم إلى الموجة الثالثة محتفظة بطابعها الاجتماعى الخاص ، الذى تطور على مدى القرون . وكل حضارة من الحضارات تحوز جانبا من الخصائص التى أشرنا إليها ، وتتناقض معها فى خصائص أخرى .

إن القابلية للتوفيق بين هذه الثقافات القادمة من الماضى ، وبين ثقافة الموجة الثالثة الخاصة بالمستقبل . هى التى ستحدد بشكل أساسى ، كم من ثقافات الأقليات الصغيرة ستجد مكانا لها فى الحضارة الجديدة .

إننا نعبر إلى مرحلة تعلى قيمة الثقافة الخاصة أكثر من أى وقت مضى .. والثقافة ليست شيئا متحجرا نستخرجه من جوف إحدى الحفريات ، إنها كل ما نخلقه مجددا يوما بعد يوم .

الثابت أن الموجة الثالثة ستحتضن العديد من الثقافات .. ولكن بالنسبة للأقليات ، سواء الأقلية الملونة فى دول التكنولوجيا المتطورة أو غير ذلك من الأقليات الأخرى فى أنحاء العالم ، أقول إن الأمس ليس كافيا .

الفصل الثاني عشر

حــــرفـــــة
المســـــتقبـــل

من بين جوانب تطورنا العقلى فى عشرات السنين الماضية ، يعتبر موضوع « المستقبلية » من الموضوعات التى حظيت بأكبر قدر من الالتباس وسوء الفهم ، وتوجد الآن تجمعات للعقول التى تسخر نفسها لدراسة الغد ، فى جميع أنحاء العالم ، من الصين إلى فنزويلا ، وجمعية « المستقبل العالمى » التى تأسست فى الولايات المتحدة الأمريكية ، قد أصبح لديها عشرات الآلاف من الأعضاء مابين مخططى المؤسسات ، وعلماء البيئة ، ومدرسين ، وخبراء كمبيوتر .

ويهاجم النقاد مثل هذه المشروعات المستقبلية ويشيرون إلى بعض الأحداث الكبرى التى فشل علماء المستقبل فى « التنبؤ » بها ، مثل قطع إمدادات البترول خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ويواجه معظم علماء المستقبل الجادين مثل هذا النقد بابتسامة ساخرة ، فهم لاينظرون إلى أنفسهم كأعضاء عاملين فى « حرفة التنبؤ » ذلك لأنهم يقضون أغلب وقتهم فى دراسة الحاضر ، ومن واقع هذه الدراسة ، يقترحون البدائل المختلفة للسياسات على صانعى القرار ، وينبهون إلى الأخطار التى قد تكون غير بادية ويوضحون احتمالات وعواقب القرارات التى تتخذ .. من خلال هذا الجهد يقومون بعدد قليل من « التنبؤات » الثمينة . وهم كأى بشر عقلاء فى أى مجال من المجالات ، يدركون ما الذى لايستطيعون معرفته ، ولن يستطيعوا معرفته .

حول موضوع « المستقبلية والمستقبليون » يدور الحوار التالى مع ألفين توفلر .

● أنت غالبا مايجرى تقديمك باعتبارك أحد « المستقبليين » أو أحد علماء المستقبل ، بسبب كتابيك « صدمة المستقبل » و « الموجة

الثالثة » ، باعتبار أن المستقبل يشكل اهتماما أساسيا فيهما .. هل تعتقد أن هذا الوصف يناسبك ؟ .. هل تنظر إلى نفسك هكذا ؟

ـ أنا لاأرفض تعبير « مستقبلي » . واعتقد أنه وصف محترم ، ولكنى لاأعتبر نفسى أساسا من « علماء المستقبل » أنا بالدرجة الأولى ، كاتب ومؤلف وناقد اجتماعى .

فأنا لاأومن بمبدأ الفن للفن ، كما لاأومن بمبدأ التاريخ للتاريخ .. وعلى هذا القياس لاأومن بالمستقبل من أجل المستقبل ، أى باعتباره فضولا مجردا تجاه عالم المستقبل . « رؤية المستقبل » والذى لايستطيع أى شخص أن يقوم به إلا بالمعنى الرمزى ، هو الطريق إلى تحسين القرارات التى نتخذها فى الحاضر .

وبالطبع ، أنا لاأعتقد أن بامكان أى شخص أن « يعرف » المستقبل ، والذين يزعمون أنهم يعرفون ، فيما يتعلق باهتماماتى ، هم من نمط محررى أبواب « البخت » فى الجرائد والمجلات وغيرهم من المشعوذين . ومع ذلك ، فأنا لاأعتقد أن بإمكان أحد أن يعيش ولو لعشر دقائق ، دون أن يخصص جانبا هاما من نشاطه الفكرى لإجراء تقديرات حول المستقبل .

عندما أمد يدى لتناول فنجان القهوة ، فأنا أقوم بافتراض ضمنى حول المستقبل .. وهو أن الفنجان مازال فوق المائدة ، عندما أمد يدى لأتناوله . وهذا النوع من التنبؤ قصير المدى جدا ، لكنه بشكل ما افتراض حول وضع الأشياء فى المستقبل . وحيث إن الأفراد يقومون بمثل هذه الافتراضات بصفة دائمة ، فإن ثقافات كاملة تتقاسم رؤى قوية حول المستقبل .

حضارات الماضى
وحضارات المستقبل

كل حضارة ، فى رأيى . لها موقف خاص متميز بالنسبة للزمن .. بعض هذه الحضارات يرتكز بثقل كبير على الماضى .. فى هذا

البعض من الحضارات تتم تنشئة الأطفال على أن يكون محور تفكيرهم هو أن الحكمة والمعرفة ترقدان بين طيات الماضى . وبالنسبة لعدد من هذه الحضارات تكون هذه الفكرة صائبة إلى حد بعيد ، ففى الحضارات أو الثقافات التى يجرى فيها التغيير بمعدلات شديدة البطء ، والتى يبقى فيها إطار العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها ثابتا لمئات أو آلاف السنين ، والتى تستخدم نفس التكنولوجيا دائما .. فى مثل هذه الحضارات ، يمكن اعتبار أن الموقف الأمثل هو أن يفعل الطفل مافعله أبواه ، ومافعله من قبل أجداده . فى هذا الوضع ، تكون الحكمة الأبوية عادة أكثر كمالا من حكمة الجيل الصاعد ، لأن معارف السلف هى الوعاء الأكمل لخبرة آلاف السنين .

لكن فى حضارة أو مجتمع متغير ، وخاصة فى زمن التغييرات الثورية ، كالتى نجد أنفسنا فيها اليوم ، يصبح الماضى دليلا أقل قيمة فى اتخاذ القرارات الراهنة ، وفى التطلع إلى احتمالات المستقبل . فى مثل هذه الظروف ، يصبح من الضرورى لضمان البقاء ، أن يتم التفكير بوضوح حول المستقبل واحتمالاته ، واستنباط الأفكار الجديدة التى تسمح بالتعامل مع هذه الاحتمالات .. فى هذه الحالة ، لابد أن يتجه مفهوم الزمن الخاص بهذه الحضارة ، نحو المزيد من إدراك المستقبل .

بشكل عام : كل واحد منا تملأ رأسه افتراضات حول المستقبل ، وأخرى حول الماضى ، والطريقة التى يعالج بها هاتين المجموعتين من الافتراضات ، تحدد بشدة قراراته الواعية بالنسبة للحاضر .. هذه المعالجة يجب أن تتغير مع تغير الظروف ، وهذا إلى حد ما ، موضوع كتابى « صدمة المستقبل » .

التصور الخطى

● لكن الذى لاريب فيه هو أن تصرفنا تجاه الحاضر يؤثر على المستقبل . حتى تصوراتنا تؤثر فيه ، فنحن نضع النبوءات التى نتمناها أو نخشاها .

ـ نعم ، وأفضل الأمثلة فى رأيى هى كتابات هكسلى وأورويل ، اللذين تصورا مستقبلا صناعيا على درجة من الصرامة والكآبة ، مما ساند الضغوط التى أثرت على مسار النظام الصناعى .

لقد كانت صور المستقبل عندهما تقوم أساسا على تصور خطى لمجتمع الصناعة التقليدى ، مجتمع الموجة الثانية ، أى أن تصورهما قام على مد الخطوط على استقامتها باعتبار أن ماسيجىء سيكون مزيدا مما هو موجود . إنهما لم يريا التحول الجدلى (الدياليكتيكى) الذى فرضته الموجة الثالثة ، لكنهما كانا من العباقرة ، وقد تمخضت عن تحذيرهما خدمة إنسانية كبرى .

● ألا يمكن أن ينطبق هذا عليك أيضا ، بمعنى أن تصورك الخاص للمستقبل قد يؤثر عليه إلى حد ما ؟

ـ آمل ذلك ، ولو إلى حد قليل .

مستقبلات .. لامستقبل واحد

● المستقبل الذى تصورته فى الموجة الثالثة ، هل هو ثابت فى أساسه غير قابل للتغيير ؟ هل يمكننا أن نضع خططا تقوم على حتمية هذا المستقبل ؟ أم أنك تقول بمجموعة من التصورات المحتملة أحدها ذلك الذى وصفته فى الموجة الثالثة ؟ أم أنه المستقبل الأكثر احتمالا ، أو الأفضل ؟

ـ دعنا لانخلط بين الأفضل والأكثر احتمالا . فمما لاشك فيه ، أننى اعتبر نفسى ناقدا اجتماعيا ، وليس متكهنا محايدا . أنا لاأكتب لكى أقرأ كلماتى ، ولكن لكى أجرى اتصالا مع عدد كبير من الناس . الهدف هو أن أشجع على استنباط طرق جديدة فى النظر إلى الواقع ، وأيضا لكى نجعل طريق التغييرات سهلا وناعما بقدر الإمكان ، وهذه التغييرات أعتبرها ـ كمؤلف ـ مطلوبة ومستحبة .

ليس هناك مستقبل واحد فى انتظارنا ، بل احتمالات متعددة . والواقع أن فكرة « المستقبلات العديدة » تعتبر فكرة محورية ثابتة فى

التفكير المستقبلى هذه الأيام .

قبل أن نتحدث عن ذلك ، قد يكون من المفيد أن ننظر إلى التاريخ الاجتماعى القريب للمستقبلية .

فكلمة « مستقبلى » لها تاريخ متنوع ، ولعل أول استخدام حديث لها كان فى مجال الفنون ، ففى بداية القرن العشرين ، قامت فى أوربا الغربية ـ وبصفة خاصة فى إيطاليا ـ جماعة من المصورين والشعراء والنحاتين ، أطلقوا على أنفسهم اسم « المستقبليون » أصدروا بيانا وكتبوا موضوعات مطولة ، وأقاموا أيديولوجية جمالية حول الاصطلاح .

هؤلاء الفنانون الذين بدءوا منبهرين بالسرعة والحركة والتكنولوجيا مالبثوا أن انزلقوا إلى تمجيد العنف والحرب ، بل بلغ بهم الأمر إلى حد تمجيد الفاشيستية .

عندما قوبلت هذه الأفكار بالإعراض ، اختفى اصطلاح « مستقبلى » ،و « مستقبليون » من الحوار الثقافى ليعود إلى الوجود ثانية فى شكل جديد بعد الحرب العالمية الثانية ، بدأ ذلك على يد رجل يدعى أو سيب فيليتشثيم بألمانيا ، فقد شرع فى الكتابة عن الحاجة إلى التنبؤ بالمستقبل ، وتعليم ماأطلق عليه اسم ... « المستقبلية » (فيوتشرولوجى) ، فى المدارس والمعاهد .

بين الممكن والمحتمل

عندما وصلنا إلى ستينيات هذا القرن ، نادت مجموعة من المتعلمين والكتاب والصحفيين ـ وأنا من بينهم ـ بالمزيد من الانتباه المنظم إلى المضامين بعيدة المدى للتغيير ، لقد جئنا من خلفيات مختلفة إلى أبعد حد ، نحمل شعارات أيديولوجية متباينة للغاية .. روبرت يانك من ألمانيا ، جاستون بيرجير من فرنسا ، المؤرخ السوفييتى بيستوزيف لادا ، عضو المجلس النيابى الهولندى فريد بولاك ، الهولندى جون ماكهيل ، بالاضافة إلى فوللر وهيلمر وبولدينج

وكورب وجوردون وخان وداتودوبيل . وهكذا بدأ اهتمامى الجاد بدراسة موضوع المستقبل عام ١٩٦٥ .

أما الرجل الذى تأثرنا جميعا بأعماله . فقد كان برناردى جوفينيل ، الذى عمل صحفيا ، وكتب عدة مقالات هامة فى العلوم السياسية والاقتصاد ، وحول موضوع التنبـؤ العلمى .. وهو الذى أشاع اصطلاح « المستقبلات » فى اللغة ، قائلا إنه ليس هناك مستقبل واحد مفرد ، ولكن هناك عدة مستقبلات .

يركز بعض الكتاب المهتمين بالمستقبل على (الممكن) . فكتاب الخيال العلمى ، على سبيل المثال ، يطرحون نطاقا واسعا من « المستقبلات الممكنة » .

وعلى العكس من هذا تماما ، يهتم المتنبئون الذين يعملون لحساب الحكومات أو المؤسسات بـ « المستقبلات المحتملة » . إنهم ينظرون إلى مايطرحه كتاب الخيال العلمى باعتباره مدنا فاضلة ، أو مدنا شريرة ، ولكنها جميعا غير عملية . الذين يقومون بالتنبـؤ العلمى يحاولون تحديد نسبة احتمال تحقق مجموعة من الأحداث الخاصة . أنهم يركزون بشكل ضيق على المستقبلات التى يرون انها أقرب إلى التحقق . لكنهم غالبا مايحرصون على إبداء التحفظات حول تنبؤاتهم .. فهم أول من يعترف باستحالة توفر الدقة فى عملية « التنبـؤ » بالمستقبل ، إذا ما أخذنا الكلمة بمعناها الشائع .

الاستقراء الخطى

● وماذا عن طرق بحثهم ؟

ـ بعضهم لايزيد على كونه واحدا من المستقرئين الخطيين ، بمعنى أن الواحد منهم أيا كان مجال تخصصه ـ فى التكنولوجيا أو الاقتصاد أو الهندسة أو الموارد أو السكان ـ يحاول أن يحدد الاتجاهات الراهنة ، فى عالم اليوم ، ثم ـ ببساطة ـ يمد الخطوط على استقامتها ، معتبرا أنه أيا كانت العمليات التى تجرى اليوم ، وأيا

كانت المؤسسات القائمة حاليا ، فإنها ستستمر فى البقاء والعمل والتأثير غدا ، مع مزيد من هذا ، وقليل من ذاك .

وأشك فى أن كل المؤسسات التى تزعم أنها مشغولة بالتخطيط ، تنشغل فى حقيقة الأمر بما لايزيد على جهد المستقرئين الخطيين ، يعتمدون على طرق بحث ضعيفة للغاية ، وغير خلاقة .

وعملية مد خطوط مايجرى اليوم على استقامتها ، تبدو عند النظرة السطحية ، عملية مأمونة وعلمية ، إلا أنها تجيء على النقيض من هذا فى معظم الأحيان ، إن استقراء الخط المستقيم يصلح أكثر جدا فى فترات الاستقرار ، عنه فى فترات التقلب الثورى ، التى نعيشها هذه الأيام .

أنا لا أصدق كثيرا أولئك المستقرئين الذين يقولون لك ، إن دخل الفرد كان يرتفع بمعدل (س) خلال عشر سنوات ، ومن ثم فهو سيصل إلى (ص) عندما تصل إلى عام ٢٠٠٠ ، أو أن تعداد سكان الأرض سيصل إلى ٧ بلايين ، لأنه يتزايد حاليا بمعدل كذا .

هذا النوع من « التنبؤ » يبدو عادة طبيعيا وأمينا ، ومع ذلك فإن التصورات الخطية تكون عرضة للأهواء ، شأنها شأن أى شكل آخر من أشكال التنبؤ أو التخيل .

أولا : هناك سؤال حول الذى تستقرؤه ، وماهى الاتجاهات التى تستحق الرصد ؟ . ثم هناك بعض التحيزات الثقافية أو الايديولوجية ، وعندما ننظر إلى تخطيط خاص بمؤسسة أو حكومة ـ على سبيل المثال ـ نجد أن معظمه يضع ثقلا شديدا على محور الاقتصاد ، وكأن الاقتصاد هو العنصر الوحيد الجدير بالرصد .

وحقيقة الأمر أن هناك تحيزات أبعد تقوم على نوع المعلومات المتاحة ، والتى يعتقد أنها صحيحة . العقول المفكرة للحكومة أو المؤسسة ، سواء كانت تنسب إلى مايسمى باليسار أو اليمين أو الوسط ، تقوم باستقراء إحصائيات مسبقة ، تقوم هى نفسها على عدة

تحيزات . فمخازن معلوماتنا الاحصائية ، تبالغ فى تقييم المعلومات الاقتصادية ، وتقلل من أثر المتغيرات الحساسة ، الاجتماعية والثقافية والسيكولوچية والسياسية ، والتى تكون عادة أصعب فى قياسها .

والنتيجة النهائية ، هى أنه بينما يحاول هؤلاء أن يقوموا بتنبؤاتهم ، فإن تقييمهم للمستقبلات الممكنة ـ من خلال نظرة كمية ـ تأتى فيه الأرقام غالبا لتخفى معلومات غائمة ، أو أفكارا خاطئة تقوم على هذه الافتراضات .

سيناريو كامل للتغيرات

● هل يمكن أن تعطينا بعض الأمثلة عن طرق البحث التى يلتزم بها علماء المستقبل ؟

ـ هناك العديد من طرق البحث غير الاستقرائية ، والتى يجرى استخدامها حاليا .

هناك محاولات لتصنيف الأحداث المستقبلية الممكنة ، عن طريق درجة تبادلها الدفع ، أو تبادلها الكبح ، لعملية نمو الظاهرة .

ثم هناك خطط الطوارىء . الجيش فى الولايات المتحدة لديه مابين ٥٠ ، ٦٠ خطة طوارىء واسعة النطاق ، لمواجهة أحداث قد لاتحدث أبدا .

وهناك محاولات لتصنيف الأحداث الممكنة من حيث درجة تأثيرها . وهذه الأحداث يتم تصنيف بعضها باعتباره « قليل الإمكان ، ولكن قوى التأثير » . بينما يجرى تصنيف البعض الآخر على النقيض من ذلك أى « عالية الإمكان ، ولكن ضعيفة التأثير » .. هناك بعض طرق البحث التى تضم جماعات صغيرة من الخبراء ، والبعض الآخر الذى يعتمد على مساهمة أعداد كبيرة من غير الخبراء .

ثم هناك الجهود الخاصة بكل قطاع من القطاعات ، يهدف بعضها

إلى دراسة مستقبل التكنولوجيا مثلا ، أو الضغوط الاجتماعية الكامنة لنظم الاتصال الحديثة . ثم هناك جماعات « الديمقراطية التوقعية » في كثير من المجتمعات ، والتي تحاول دفع المواطنين إلى المساهمة في عملية وضع الأهداف ، على مستوى الدولة أو على مستوى المجتمع .

المناهج ، والتشكيلات التنظيمية ، والأهداف والإجراءات الخاصة بهذه الجهود ، تتباين كلها بشدة ، وليس من بينها مايمكن أن يدخل نتاج عمله في دائرة « التنبؤات » ، ومع ذلك فإنها جميعا تسعى إلى جمع شتات صورة تخيلية لأوضاع المستقبل وأحداثه ، ثم يأخذون الطريق العكسي ، فيسألون أنفسهم : إذا تحقق هذا الحدث ، فما الذي كان قد جرى قبل ذلك ، وجعل حدوثه ممكنا ؟

وهم بسؤالهم هذا السؤال المرة تلو الأخرى ، يصلون إلى السيناريو الكامل للتغييرات .

الفصل الثالث عشر

أدواتنا العقلية فى طريقها إلى المتاحف !

إنسان اليوم يظل طوال الوقت يتلقى قذائف من المنبهات تأتى من خارجه .. منبهات مادية تؤثر على حواسه ، ومنبهات معرفية ترتطم بعقله على صورة أفكار وصور ورموز .. تتدفق عليه الأخبار من راديو السيارة ، وشاشة التليفزيون ، وإعلانات الجرائد . والمكالمات التليفونية ، ومانشيتات الصحف .. كل هذا الفيض المتدفق يجرى تجميعه أو تخزينه فى ذاكرة الانسان .

ويبدو أن أكثر الأمور حسما فى هذا المجال ، هو الطريقة التى نختارها لتنظيم هذا السيل الذى لايتوقف من المعلومات ، ليس فقط فى حياتنا الشخصية ، ولكن أيضا فى اتخاذ القرارات الإدارية ، والتعليم ، والتنظيمات السياسية ، وغير ذلك من آلاف ضروب النشاط .

وإذا أردنا أن نرسم صورة سليمة للمستقبل الذى يتشكل ، نحتاج إلى أدوات عقلية قوية جديدة .. نحتاج إلى نظريات جديدة فى النظر إلى التغير وفى السببية بين الأحداث ، تكون قادرة على تفسير التعقيدات الجديدة فى المجالات الاجتماعية والسياسية .. نحتاج إلى نظم جديدة فى التقسيم وفى التصنيف ، وإلى مخططات جديدة تساعدنا فى الربط بين عناصر المعلومات الكثيفة المتنافرة ، والتى تهدد بإغراقنا فى بحر الضياع .

يقول الكاتب والناقد الاجتماعى ألفين توفلر إن أدواتنا العقلية الحالية ، شأنها شأن العديد من آلات عصر المداخن ، تتهيأ لدخول المتاحف الأثرية .. ويدعو إلى تبنى أدوات عقلية جديدة تتفق مع واقع العصر .. يتحدث عن هذا من واقع تجربته الشخصية .

ثم هو يتحدث عن الخلاف الرئيسى بين رؤيته الحالية المتمثلة فى الموجة الثالثة ، وبين الماركسية التى كان يعتنقها ويتحمس لها فى

شبابه . ويقول إن الفكر الماركسى لم يعد صالحا للتطبيق على عالم اليوم بكل مافيه من تنوع وتباين ، إلا فى بعض الحالات الخاصة ، ولبعض الوقت .

الحدس قبل البحث

● أنت كمؤلف يتجمع لديك قدر هائل من المعلومات .. على أى أساس ترفض بعض هذه المعلومات وتعتبرها غير صحيحة . بينما توافق على معلومات أخرى وتصفها بأنها مؤثرة ؟ ... ثم كيف تصل إلى تطوير صورة متكاملة واضحة من وسط بحر الحقائق ؟

ـ الإجابة الصادقة ، لى ولغيرى ، يجب أن تتضمن كلمة « الحدس » . فالحدس عنصر لاغناء عنه فى مثل هذا النوع من العمل ، بصرف النظر عن محاولات عشاق الأرقام لإخفاء هذه الحقيقة .

عندما نواجه قدرا هائلا من المعلومات ، يعمد العقل البشرى إلى خلق مخطط ـ أو فى الحقيقة عدة مخططات ـ يساعد على تنظيم ومعالجة هذه المعلومات ، أى على أن تصنع منها شيئا له معنى . ومعظم الكتاب لايكشفون عن المخططات التى يعتمدون عليها ، بل أن بعضهم لايدرك المخططات التى يطبقها بشكل واع .

وأعتقد أن بإمكاننا أن نحدد المخططات الضمنية فى أعمال العديد من المؤلفين ، مثل بلزاك وزولا ، وكذلك من المفكرين الاجتماعيين مثل آدم سميث وفرويد وماركس ، وعادة ماتميل مخططات الأدباء إلى أن تكون ضمنية . فهم فى غنى عن أن تكون مخططاتهم واضحة ومحددة ، الأمر الذى يشكل ضرورة فى العلوم .

● وكيف توصلت إلى المخططات الخاصة بك ؟

ـ لايمكن لأحد أن يجيب عن هذا النوع من الأسئلة بشكل كامل ، لأنه غالبا مايكون هناك عنصر لاشعورى فى عملية تشكيل المخطط ،

بالاضافة إلى كم لايستهان به من الافتراضات غير الواضحة .

أنا أبدأ عادة بمواد بحثى وبمذكراتى وهذه ـ إن لم تكن تعرف ـ تكون غالبا ضخمة للغاية ، إنها قد تمثل خمس سنوات أو أكثر من القراءات المكثفة ، فى المجالات التكنولوجية ، والصحف الأجنبية ، والأوراق الأكاديمية ، والخطابات ، وملخصات الإحصائيات والتقارير القادمة من عدة بلاد ، بالإضافة إلى الاستنباطات التى أخرج بها من الروايات والأفلام والأشعار ، وأيضا يضاف إلى ذلك كله التفريغات الكاملة الحرفية للأحاديث والحوارات التى أجريها مع الخبراء فى مجالات ذات تنوع واسع ، تتراوح بين الاقتصاد والاستراتيجيات العسكرية ومستحدثات الروبوت (الانسان الآلى) ، وتصل حتى إلى الموسيقى ورعاية الطفل .

أبدأ بخلط كل هذه المواد وإعادة ترتيبها على أساس تقسيمات متنوعة ، باحثا عما فيها من علاقات متبادلة ، وما تتضمنه غير ذلك من أنماط . عادة ما أترك المخطط يبرز من خلال هذه العمليات . وأراه يتخلق من وسط هذه المواد .

بمجرد أن يظهر لى ذلك المخطط ، أسعى إلى المزيد من مواد البحث الإضافية ، التى إما أن تجىء مساندة لذلك المخطط ، أو تدفعنى إلى تعديل المخطط جزئيا ، أو توسيعه ، أو تحديده ، أو حتى التخلى عنه والبدء من جديد .

وفى أحيان أخرى أمضى فى السبيل المضاد ... فأبدأ بمخطط تجريبى ، أى أن افترض تتابعا للأفكار يلح على فكرى ، ثم أقوم بالبحث اللازم وجمع المعلومات الضرورية لهذا المخطط ، وأجرى تعديلات فى المخطط ، وفقا لما تفرضه الوقائع والمعلومات .

ترابط الأحداث هو الأساس

● وكيف جرى عملك فى حالة كتاب « الموجة الثالثة » ؟

ـ فى حالة « الموجة الثالثة » بدأت بمخطط جزئى للتغير الاجتماعى والبيئة الاجتماعية ، وكانت كتابة الكتاب هى أيضا عبارة عن عملية تطوير واستكمال دائمين للمخطط ، ولكن ، أن تتمكن من تطوير مخطط وتنجح فى تطبيقه ، فإن هذا فى حد ذاته يساعد على تنظيم المواد التى بين يديك ، بحيث تظهر بعض العلاقات والاحتمالات التى كانت خافية عليك .. من هذا كله يمكنك أن تصل إلى استخلاص مقبول . ومن الواضح أنها عملية عقلية داخلية مركبة جدا ، يستطيع أن يصل بها المؤلف إلى الكلمة المكتوبة .

أما بالنسبة لعملى فى موضوع التغير الاجتماعى ، فقد بدأت بافتراض أن الأحداث والظواهر الاجتماعية تكون مترابطة ، ولا تتم فى عزلة عن بعضها البعض . لايمكن أن يحدث تغير اقتصادى دون أن تكون هناك تغيرات فى الحياة الأسرية ، وفى الطاقة ، والنظام البيئى .. كل هذه العناصر تكون متشابكة ، تتصل ببعضها البعض عن طريق حلقات من التغذية المرتدة المركبة ... لهذا ، ركزت دراستى على البحث عن العلاقات المتبادلة التأثير .

كما بدأت مفترضا عدم وجود قوة دافعة وحيدة للتاريخ ، وأنه محكوم بمجموعة من القوى والاتجاهات ، التى تنتج عن تفاعلات التغيرات الكبرى .

ظهور هتلر وستالين

● أعطنى مثلا على ذلك ؟ .

ـ سأختار واحدا بطريقة عشوائية : محاكمات ستالين فى الثلاثينيات . أقرأ حاليا قطعة رائعة من التاريخ السياسى والاجتماعى ، « فى الميدان الأحمر » ، من تأليف انتونى كيف برون وشارلز ماكدونالد . أنهما يصفان فى هذا الكتاب صعود هتلر وستالين ، والتضخم الألمانى ، وظهور روزفلت ، التاريخ الكامل لتلك الفترة .

وهما ، فى معرض حديثهما ، يشرحان سلاسل محاكمات الخيانة التى تمكن ستالين عن طريقها أن يزيح عن سبيله جميع قادته وكبار ضباطه تقريبا . ويشير المؤلفان إلى أن هذا الهبوط فى الطاقة العسكرية السوفييتية جاء بالتحديد فى الوقت الذى كان هتلر يتوسع فيه بسرعة فى طاقة العسكرية الألمانية .

وهذا يعنى ـ باستخدام مصطلحات العالم « إليا برجوجين » ـ حدوث ترددات أو تقلبات داخلية (محاكمات ستالين) ، مصاحبة لتقلبات خارجية (صعود هتلر) . وهذا يعنى أيضا أنه عندما نبحث فى التغيرات الداخلية ، والتغيرات الخارجية ، لابد أن نسأل أنفسنا دائما : ألا يمكن أن تشكل كل واحدة منها دفعا للأخرى .

وحتى نفهم هذا بشكل أوضح ، نشير إلى أن برجوجين عالم الكيمياء الطبيعية ، الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٧٧ ، قد استنبط رؤيته هذه من واقع عمله فى بحث الديناميات الحرارية للأنظمة غير المتوازنة ، وقد ظهر أن القوانين التى توصل إليها تتجاوز الطبيعة والكيمياء ، لتنطبق على ظواهر أخرى فى حياتنا .

وهو يقول إن أى ظاهرة ، سواء كانت تتصل بمركب كيميائى أو نظام اجتماعى ، تمر على الدوام بتغيرات داخلية ، دائمة التردد أو التقلب . وكل ظاهرة أو نظام ، يكون له نظامه التحتى أو الداخلى الذى يتذبذب ويتردد باستمرار . ومن حين لآخر يصل أحد هذه الترددات إلى ذروة كافية لتفجير البنية الكاملة للنظام . وغالبا ما يحتاج الأمر إلى ترددات عديدة فى النظم التحتية المختلفة ، تؤثر فى بعضها البعض ، قبل أن تصل البنية الأساسية الكلية إلى حالة التغير أو التبدل الثورى .

وكل ظاهرة لها بيئتها الخارجية . وهذه البيئة الخارجية تحدث أيضا فيها ترددات وتقلبات .. وعندما يتوافق حدوث ترددات خارجية عالية ، مع مايناظرها من ترددات داخلية عديدة ، فإن هذا يجعل النظام أكثر ضعفا ، وأكثر تقبلا لحدوث التحولات أو التغييرات الثورية .

من الكيمياء الطبيعية
إلـــى المجتمـــــع

يقول برجوجين إنه تحت ظروف خاصة فإن تداعى بنية ما ، نتيجة لتردد أو عدة ترددات ، يؤدى إلى تكوين بنية جديدة ، أكثر تركيبا من سابقتها ، وتحتاج إلى قدر أكبر من الطاقة لضمان استمرارها .. وهذا هو مايطلق عليه « البنية المشتتة » .

فإذا تركنا عالم الطبيعة والكيمياء ، أمكننا أن نرى مقابلا لذلك فى المجال البشرى . إن مايجرى فى حياتنا أقرب إلى ذلك الذى يتحدث عنه برجوجين . إننا نتحرك نحو بناء اجتماعى جديد . أكثر تنوعا وتباينا ، ولذلك فهو يحتاج إلى المزيد من المعلومات ، حتى يمكن له أن يستمر .

والعديد من الظروف الاجتماعية والاقتصادية تجرى وفق هذا النوع من التشكل .

مثال ذلك ، الدول الصناعية التى تمر اليوم بتحولات داخلية عنيفة ، ترجع جزئيا إلى الثورة التكنولوجية . تقلبات واهتزازات داخلية ، تتمثل فى انحدار مركز صناعات السيارات أو الصلب ، وصعود طائفة أخرى من الصناعات ، مثل الكمبيوتر وهندسة الجينات . هذه التقلبات الداخلية تصبح متسارعة نتيجة لضغوط (خارجية) ، من أمثلتها القوى العسكرية الصاعدة للدول غير الصناعية ، والصعود الوقتى لمنظمة (أوبيك) .. إلى آخر هذا . إن التقاء العديد من القوى الداخلية والخارجية يضاعف الضغوط ، وهذا يراكم بدوره العمليات الثورية لإعادة البناء ، بالنسبة لاقتصاديات الدول صاحبة التكنولوجيات المتقدمة ... والنتيجة ، مستوى من التطور أعلى وأكثر تركيبا ، يعتمد اعتمادا أكثر بكثير على المعلومات .

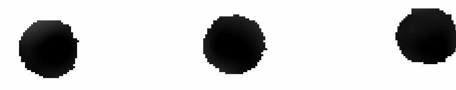
ماركس من عبقريات القمة

● هل يمكن أن تعقد مقابلة بين تناولك للتغير الاجتماعى .

والنماذج أو الخطط التى وضعها ماركس ؟

- ستجد أن نقط الاختلاف أكثر من نقط اللقاء .

لقد كنت ماركسيا فى عشرينيات حياتى . لكننى كنت كلما ازددت معرفة بالمجتمع ، وكلما توسعت خبراتى المباشرة كصحفى ، وكلما تسارعت التغيرات التى تفعل فعلها فى المجتمعات ذات التكنولوجيا المتقدمة ... كلما حدث ذلك ، زاد اقتناعى بمدى التخلف الحالى للنظرية الماركسية ، ومدى تناقضها مع الواقع .



عندما كنت شابا ، كان التفسير الماركسى لحركة المجتمع بالنسبة لى كشفا مثيرا رائعا ، لقد كان كارل ماركس عبقريا من عباقرة القمة .. إنه يذكرنى بالمؤلف الموسيقى العبقرى باخ فى شدة تركيب ودرجة إحكام أفكاره . وأولئك الذين يهاجمون ماركس ويقللون من شأنه ، سواء أدركوا ذلك بطريقة واعية أم لا ، قد تأثروا به تأثرا حقيقيا رغما عنهم ، تماما كما تأثرنا نحن بنيوتن وداروين وفرويد ، وغير هؤلاء من كبار المفكرين الذين صاغوا رؤيتنا للعالم .

بعد ماركس ، لم يعد ممكنا أن تفكر فى التكنولوجيا بنفس الطريقة التى كنت تفكر بها قبل ذلك .. لم يعد ممكنا تجاهل الطبقات .. لم يعد ممكنا أن ترى السياسة والاقتصاد أحدهما بمعزل عن الآخر ، أن تكون جاهلا بماركس فى عالم اليوم ، يعنى أنك نصف أمى .

وإذا كان نصف سكان العالم يتعاملون اليوم مع كلماته كنصوص مقدسة ، فذلك لا يمنع أن ماركس نفسه كان تعبيرا عن المجتمع التقليدى للموجة الثانية ، أو المجتمع الصناعى ... تشكل عقله وفقا لأسس وافتراضات ذلك المجتمع ، لكن الكثير من هذه الأسس والافتراضات لم يعد صالحا ، أو لم يعد يفعل فعله فى حياتنا .

ورغم أن عملى اليوم مازال يرتكز على موضوعات كتب عنها ماركس : التغير الاجتماعى ، ودور التكنولوجيا ، والصراع ، وعدم

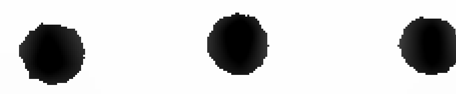
التواصل ، والثورة بمعناها العريض ، لكن هناك خلافات حاسمة بين وضعى الحالى ووضع الماركسية .. ومفتاح هذا الخلاف يكمن فى الأولوية التى يعطيها الماركسيون للاقتصاد .

الخلاف الرئيسى

● قد يوافق الماركسيون على أن الاقتصاد نظام له حركته الداخلية . لكن الماركسيين يصرون على أن كل النظم الأخرى فى المجتمع تنبع من الاقتصاد . ويبدو أنك تختلف معهم اختلافا أساسيا حول هذا الموضوع ، عندما تنظر إلى الاقتصاد باعتباره أحد العديد من الأنظمة التحتية ، هل هذا هو جذر الاختلاف بينك وبين الماركسية ؟ ..

ـ نعم ، فكل ماهو غير اقتصادى عندهم لايزيد على كونه « بنية فوقية » ، تقوم على أساس تكنولوجى اقتصادى . وأنا اختلف مع هذه النظرة ، لكن ذلك لم يكن السبب الرئيسى فى خلافى مع الماركسية .

لقد حدثت الفرقة الثقافية بينى وبين الماركسية منذ زمن بعيد ، عندما ظهر ذلك التناقض الحاد بين تنبؤ الماركسيين الأمريكيين ، وبين واقع الحياة اليومية فى أمريكا .



فى نهاية الحرب العالمية الثانية ، عندما كنت طالبا ، أصر الماركسيون على أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت على شفا أزمة اقتصادية كبرى ، يتكرر فيها ماحدث فى أزمة الثلاثينيات . قالوا إنها مسألة وقت فقط ، ثم تسود الولايات المتحدة الأمريكية « الأزمة العامة للنظام الرأسمالى » .. وواقع الأمر أن الذى حدث بعد ذلك كان حالة من الوفرة الاقتصادية فى الخمسينيات والستينيات ..

كذلك كان هناك تنبؤ زائف آخر مستمد من النموذج الماركسى . فالطبقة العاملة الأمريكية لم تصبح مطحونة بائسة ..

لقد ظهر لى أن الانقسامات الاجتماعية حول الجنس والعرق والسن فى الولايات المتحدة الأمريكية أكثر أهمية بكثير من تلك التى تتصل بالطبقة . ومحاولة تفسير هذه الانقسامات بمفهوم التحليل الطبقى يجعل من الصعب إخضاع الواقع للنظرية .

عصر الميكروسكوب الالكترونى

إذا ماكانت جميع الآليات القوية للماركسية النظرية تعطى إجابات خاطئة للغاية ، عندما يجرى تطبيقها على واقع الولايات المتحدة الأمريكية ، يصبح من واجب المرء أن يتساءل حول مدى استمرار صلاحيتها العامة كأداة لفهم الواقع أو لإحداث التغيير فيه .

وفوق هذا وذاك .. فإن الشواهد القادمة من العديد من الدول ، وليس فقط « الحالة الخاصة » التى تتصل بالاتحاد السوفييتى ، تثبت بطريقة لاجدال فيها أن « دكتاتورية البلوريتاريا » هى بالضبط : دكتاتورية .

من الناحية العقلية ، أصبح واضحا لى كل الوضوح أن الماركسية أصبحت أداة مضللة وغير صالحة لفهم واقع عالم التكنولوجيا المتطورة . إن الاعتماد على الماركسية حاليا فى تشخيص التركيب الداخلى لمجتمعات التكنولوجيا المتطورة ، يبدو مثل اقتصار شخص على استخدام العدسة المكبرة ، فى عصر الميكروسكوب الالكترونى .

غلطة مأساوية

● هل تريد القول إن صراع الطبقات ليس مسألة محورية فى التغيرات الحالية ؟ أم أنك تقول إنه لم يعد مفتاح هذا الموضوع فى دول التكنولوجيا المتطورة . بينما يظل مؤثرا وصالحا فى غير ذلك من المجتمعات ؟ ..

- سائدا ؟ ... لا ، بتاتا . التكنولوجيا والاقتصاد عاملان مهمان ،

لكنهما ليسا « الأساس » الذى يعتبر كل مايعلوه « بنية فوقية » .

إذا أزحنا التفاصيل جانبا ، نصل إلى أن ماركس يصر على أن المصدر الأساسى للتغير فى المجتمع إما أن يكون صراع الطبقات ، أو بشكل أعم تقدم التكنولوجيا والتغيرات المصاحبة فى العلاقات الاقتصادية ، وأن تطور « أدوات الانتاج » يقود إلى تغيرات فى « علاقات الانتاج الاجتماعية » . إلى آخر ذلك .

قد توجد مجتمعات التحليل الطبقى فيها مازال مفيدا ، للفهم المبدئى ، وبصفة خاصة عندما تكون هناك طبقة واحدة تضغط باستمرار وبشكل مستميت على طبقة أخرى ، وعندما تكون خطوط الصدع الاقتصادى حادة للغاية ، بحيث يكون الصراع الطبقى هو الصراع الغالب السائد ، فى ذلك المجتمع بالذات ، وفى تلك اللحظة التاريخية بالتحديد .

لكن أن نعمم ذلك ، وأن نفرضه كحقيقة سائدة فى جميع أنحاء العالم ... وأن نصر على أولويته ، وأن نزعم صلاحيته لجميع الأزمان والأوقات .. كل هذا يبدو لى غلطة مأساوية فظيعة .

الفصل الرابع عشر

صـــراع طبقـــى .. أم صراع تصادم الموجات ؟

فى عالم اليوم ، توجد مجتمعات يبدو فيها الصراع الطبقى نابضا وحاسما ، ويصبح فيها لغير ذلك من الصراعات الأخرى العديدة أدوار فرعية . يرى توفلر فى هذا عرضا وقتيا ، وليس وضعا دائما ، وحتى عندما يبرز الصراع الطبقى ، ويبدو للوهلة الأولى أنه الصراع الوحيد ، فإن المتأمل يمكنه أن يتبين تنوعا فى درجة سيادة الصراع الطبقى وغلبته على غيره من صراعات ، وسيكتشف علاقات بين الصراع الطبقى وغير ذلك من الصراعات العرقية والجنسية ، وصراع الأجيال .. إلى آخر ذلك . لقد اختزل كارل ماركس الدلالة النسبية لكل هذه الصراعات الأخرى . ويرجع توفلر هذا إلى أن تركيز ماركس على الطبقات كان نابعا من نظرته المحدودة لأوربا ، واستنباطاته من مرحلة بدايات الرأسمالية . ويقول توفلر إن التسلط المرضى لفكرة الطبقات ، يفسر ماتلقاه النظرية الماركسية من فشل عند التطبيق ، فى دولة بعد أخرى .

● قد أوافقك على أن افتراضنا المسبق بأن التحليل الطبقى سيكشف لنا كل مانريد أن نعرفه عن مجتمع ما ، أو أن الصراع الطبقى هو الصراع الأساسى الوحيد فى المجتمع ، يعتبر افتراضا خاطئا . لكن ، يبدو لى أنه من الخطأ أيضا إنكار أن التحليل الطبقى ، هو أحد الأدوات الفعالة فى فهم المجتمعات الحديثة ، وأن الصراع الطبقى هو أحد أهم أشكال الصراع وأكثرها حسما ... أنا لا أعتقد أنك تنكر هذا .

ـ لا .. ما أقوله هو أن مع كل مافى تحليلات ماركس الأصلية من إبهار عقلى ، ومع كل مافى أفكاره من كشوف مركبة ، فإن هذه التحليلات ، كانت ومازالت ، ذات بعد واحد .

● ذات بعد واحد ؟ ! ... أعتقد ـ سواء وافقت على ماقالت به

الماركسية أم لا ـ أنها نظرية عريضة شاملة وأنها ترد على كل مظهر من مظاهر الحياة .

ـ سليم ... لكن الصراع الطبقى هو مجرد واحد من الترددات الأساسية فى المجتمع . وأنت إذا ما حاولت أن تضع نظرية تاريخية كاملة حول الصراع الطبقى ، فستكون كمن يدرس ظاهرة مركبة من خلال شق ضيق .

بإمكان الواحد أن يكتب التاريخ الكامل للمجتمع البشرى بمفهوم الصراع الجنسى ، الأمر الذى يذكرنا بفرويد وبعض الجماعات النسائية الحديثة . أو نكتبه بمصطلحات الصـراع العرقى والعنصرى ، أو صراع المجتمعات ، أو الصراع السياسى .. إلى آخر ذلك .

ومن ناحية أخرى ، قد يعمد الواحد إلى تقسيم المجتمع إلى قطاعات مختلفة ، تنتظم حول محاور صراع متباينة ، ويبين كيف تتبادل هذه المحاور التأثير فى بعضها البعض . وفى رأيى أن هذا سيتيح ـ فى ظل أوضاع معينة ـ أدوات لفهم المجتمع ، بل ولتغييره ... نعتمد فيها بشكل أقل على أدوات التحليل المتركزة على الاقتصاد ، وبشكل أكثر على أدوات التحليل المتعددة الأبعاد .

مجالات الموجة الثالثة

● كيف إذن نصف نموذج الموجة الثالثة ، بعيدا عن الطبقات ومابينها من صراعات ؟ من أين تنطلق ؟

ـ بدأت بمحاولة التعرف على السمات المشتركة فى جميع الحضارات . مثال ذلك ، تتميز جميع الحضارات بنظام طاقة خاص بها ، ولكل منها منهجه فى انتاج البضائع والخدمات الضرورية لحياتها ، ومنهجه فى توزيعها ..

ويبدو بشكل واضح أن هذه النظم الثلاثة : الطاقة ، والانتاج ،

والتوزيع ، مترابطة ترابطا شديدا ، وتشكل معا مايمكن أن نسميه « المجال التكنولوجي » .

وكل الحضارات لها أيضا رؤيتها عن العلاقة بين الكائنات الحية وبيئتها ، وتجرى ترجمة هذه العلاقة على شكل مؤسسات اجتماعية ، وهو مايمكن أن نسميه « المجال الاجتماعي » للحضارة . فى كل حضارة ترتبط هذه المؤسسات والتنظيمات الاجتماعية ببعضها البعض فى أشكال مختلفة ، ففى الحضارة الصناعية ، على سبيل المثال ، نرى الأسرة النووية التى تتكون من الوالدين وابنين أو ثلاثة على الأكثر ، تعد أطفالها للحياة من خلال مدارس نمطية جماهيرية ، وهذه المدارس تركز على إعداد هؤلاء الصغار للحياة فى الشركة أو فى مشروع الانتاج الاشتراكى .

وهكذا ، نرى أن بداخل هذا « المجال الاجتماعى » توجد عدة نظم تحتية ، تتبادل فيما بينها التأثير . هذا ، بالاضافة إلى الترابط الوثيق بين « المجال التكنولوجى » و« المجال الاجتماعى » .

التأثير المتبادل بين المجالات

وكل الحضارات لها أيضا نظمها فى الاتصال والمعلومات . بعض المجتمعات لاتحتاج إلى الكثير من تبادل المعلومات ، فتكتفى بإيفاد العدائين عبر الريف ، أو هى ـ شأن الفرس القدماء ـ تقيم أبراجا يصيح من فوقها رجال يتميزون بحناجر قوية ، لإبلاغ الرسالة من برج إلى آخر .. لكن الثابت أن الاتصال خارج القرية كان محدودا ، ولهذا لم تتطور وسائل الاتصال .. من هذا يمكن القول بأن كل مجتمع لديه نوع من وسائل الاتصال ، سواء كانت متخلفة أو متطورة ، وأنا أطلق على هذا اسم « المجال الإعلامى » .

وأعود لأقول إن المجال الاعلامى يرتبط ارتباطا وثيقا بالمجالين التكنولوجى والاجتماعى . بالإضافة إلى ماسبق ، نرى أن كل المجتمعات تعمل من خلال « مجال بيولوجى » . والظروف التى

يحددها هذا المجال البيولوجى أو الحيوى ، قد تختلف اختلافا كبيرا ، من وقت لآخر ، بالنسبة لأية حضارة من الحضارات .

كما أن لكل حضارة « مجال قوة » ، تكمن فيه السلطة من خلال المؤسسات السياسية ، الرسمية وغير الرسمية ، كذلك يوجد فى كل المجتمعات مايمكن أن نسميه « المجال النفسى » ، وهو المجال الذى تتحقق فيه العلاقات الحميمة الذاتية ، ويتنفس فيه الكيان الفردى .

عندما نضم هذه المجالات كلها إلى بعضها ، المجالات التكنولوجية والاجتماعية والإعلامية والبيولوجية والسلطوية والنفسية ، نجد أنها تشمل الكثير مما يدور فى أى مجتمع أو حضارة (وأكرر ، الكثير وليس الكل) .

وهكذا يمكننا أن ندرس بشكل منظم التأثيرات المتبادلة بين عناصر كل مجال ، وبين كل مجال والمجالات الأخرى .

التاريخ ... بين الثبات والحركة

● وأين تضع الثقافة فى مجالك الإعلامى ؟

ـ لا .. إن الثقافة تعتبر ، بشكل ما ، شريحة أخرى ، كما سنرى فيما يلى .

الذى أريد أن أركز عليه الآن ، هو أن داخل كل مجال من المجالات ، توجد عناصر داخلية مركبة تترابط مع بعضها ترابطا شديدا ، وكلها دائمة التغير ، والتقلب ، والتطور ، ولهذا يمكننا تحليل كل مجال من هذه المجالات ، وإجراء وصف تفصيلى دقيق لمكوناته ، والعلاقات التى بين هذه المكونات .

ومن الواضح أن هذه المجالات ذاتها ، تمر فى نفس الوقت بتغيرات متواصلة ، وأنها تترابط من خلال نظام يتيح لها أن تعتمد على بعضها . وقد أشرت إشارة عابرة إلى العلاقات التى تقوم بينها

فى كتابى « الموجة الثالثة » ، ومن الممكن تصويرها بتفصيل أكبر .

بل يمكننا أن نتجاوز « العلاقات الكبرى » بين المجالات المختلفة ، و« العلاقات الصغرى » بين عناصر كل مجال إلى تحديد « العلاقات الاتصالية » بين عناصر مجال ما ، وعناصر مجال آخر ، وباختصار ، يمكننا أن نجعل المخطط أو النموذج أكثر تركيبا وتفصيلا ، بقدر مانرغب .

مثل هذا المخطط يساعدنا على اختبار أى حضارة ، وعلى التمييز بين الحضارات ، لكنه فى نفس الوقت مرن للغاية ، إنه يسمح لنا أن نرى العناصر المختلفة لأى مجتمع وهى تتشكل ، أن نراه كجانب من موجة تغيرات مترابطة ، متبادلة التأثير .. لهذا عمدت إلى استخدام تشبيه الموجة .

بدلا من طرح التاريخ كتتابع من « المراحل » ، كما لو كانت كل مرحلة صورة فوتوغرافية ثابتة ، تتيح لنا نظرية الموجات الاجتماعية أن نرى المجتمعات بأكملها أثناء تطورها . إن بامكاننا ـ على سبيل المثال ـ أن نرى أكثر من موجة واحدة من موجات التغير تعبر نفس المجتمع بشكل آنى . وبهذا يمكننا أن نصف مجتمعا ما من واقع مزيج عناصر الموجات الأولى والثانية والثالثة التى تعمل فيه ، وبمصطلحات المعدلات المختلفة من التغير فى كل موجة .

يبقى بعد ذلك أن نشير إلى أن الحضارات تكون أكثر تعقيدا من هذا ... وأن ماتعرضنا له الآن مازال جانبا من المخطط للفعلى الذى أوردته فى كتاب « الموجة الثالثة » .

الغطاء الثقافى

● فى كتاباتك تشير إلى تغيرات بنيوية . ولكنك تشير أيضا إلى « مبادىء حضارية » ، كيف ينسجم هذا مع مخطط « الموجة الثالثة » الذى وضعته ؟

ـ المجالات المختلفة التى وضعتها ، هى مايمكن أن نطلق عليه العناصر البنيوية فى أى حضارة ، وهى تتصل فيما بينها بعدة طرق مركبة ، لكن هناك بعدا آخر ينفذ بشكل قاطع عبر كل هذه المجالات ، كل حضارة تسعى إلى تطوير « أيديولوجية عليا » تبرر بها وجودها ، وتوضح عن طريقها المكان الذى تحتله فى العالم وفى تاريخه ، وتفلسف بها عملياتها . وهذا هو الغطاء الثقافى الذى ترخيه على كل مجالاتها ، والذى يساعد على تشكيل بنيتها . هذه الأيديولوجية العليا ينعكس أثرها على كل المجالات ، من الحياة الأسرية وحتى المستحدثات التكنولوجية .

بالإضافة إلى الأيديولوجية العليا ، تبدو كل حضارة وكأنها تعمل وفقاً لمجموعة من المبادىء المحددة والتى تشكل جانبا من كيان هذه الحضارة . ففى الحضارة الصناعية ، التى طبقت مخططى أساسا عليها ، تتأثر كل هذه المجالات بمبادىء النمطية أو التوحيد القياسى ، والتزامن ، والتخصص ، والمركزية ، والتركيز ، وعشق الضخامة أو بلوغ النهايات القصوى .. إلى آخر ذلك .. هذه هى المبادىء الأساسية المنظمة للمجتمعات الصناعية .

عندما تتبلور الحضارة فى الفرد

● بينما يعتمد « اليساريون » فى تناولهم على العلاقات العرقية والجنسية والاقتصادية والاجتماعية ، وغير ذلك ، باعتبارها المبادىء المنظمة .. نرى أن التناول من خلال فكرة « الموجات » يركز على مبادىء مثل النمطية والتزامن ... ألا ترى فى هذا إمعانا فى التجريد ؟ .

ـ ربما .. لكنها فى نفس الوقت مبادىء محسوسة للغاية ، وأعتقد أنها أقرب إلى الفهم ، وعندما نضع كل هذه الجزئيات جنبا إلى جنب ، ليس كالقطع الجامدة التى تتشكل منها لعبة تكوين الصور ، ولكن كعناصر سينمائية متحركة ، يمكننا أن نصل إلى مايقرب من

الكل ، الذى تتطور جميع أجزائه ، وتتبادل التأثير ، ويدفع كل جزء منها الجزء الآخر ، فتتحرك معا بشكل متزامن ، أو تتطاحن وتتناقض ويصدم بعضها بعضا .

إن الصراعات حول العرق والجنس والطبقة ، مع أهميتها ، ليست كافية لوصف مجتمع كامل أو حضارة كاملة ، وتحديد الوجهة التى تمضى إليها .

إن الحضارة تتشكل من أشخاص أفراد ، يعيشون حياتهم ، يمارسون نشاطهم اليومى ، يحاربون ، ويحبون ، ويموتون ، وينجبون .. إن الطفل الذى يغسل أسنانه صباحا (قبل ذهابه إلى المدرسة التى يتأهل فيها لحياة العمل فى المصنع أو المكتب) ، يكون ممثلا لحضارتنا ، تماما كما يمثلها كبار الفنانين والسياسيين والزعماء ، والذين يشغل ذكرهم متاحفنا ، وكتب تاريخنا .

إذا ماتفحصنا بدقة الطريقة التى تتم تربية الطفل على أساسها ، إذا مانظرنا إلى درجة النمطية فى حياته ، إلى تزامن خروجه إلى المدرسة صباحا ضمن البرنامج اليومى للعائلة ، وإلى الحركة النمطية لغيره من التلاميذ .. إذا ما فحصنا التكنولوجيا والطاقة التى تقوم عليها الحياة اليومية لأسرته ، وفحصنا المؤسسات الدراسية وعلاقتها بالدولة ، ونظام الأسرة والعقيدة الدينية السائدة .. إذا ما نظرنا بإمعان إلى وسائل الاتصال التى تشكل الطفل ، وإلى البيئة الطبيعية التى يعيش فيها ، وبنية السلطة السياسية التى يولد فى ظلها .. إذا نظرنا فى هذا جميعا ، لرأينا الحضارة بكاملها متبلورة فى فرد واحد محدد .

من هذا ، أقول إن المخطط أو النموذج الذى طورته ، بما فيه من « مجالات » ، و« مبادىء » مختلفة وبما فيه من « أيديولوجية عليا » ، يرتبط بالحياة الفعلية . إنه ليس مجرد نموذج أكاديمى معقم ، بل هو نموذج عملى يرتبط مباشرة بالسلوك .

من الذى يصنع التاريخ

● لاشك أننا بحاجة إلى نماذج مخططات تساعدنا على فهم المجتمع . ولكن هناك مخططات أخرى ونماذج مختلفة ، تساعد على فهم المجتمع ، ولاتقوم على تصورك بما فيه من مجالات ومبادىء وأيديولوجية عليا ، وتبدو أكثر ، اتصالا بحاجاتنا الأساسية اليومية .

ـ لن أناقش مسألة وجود نماذج أخرى ، فليس هناك مخطط أو نموذج كامل .. السؤال هو : أى هذه النماذج مصمم لكى يكون شاملا قدر الإمكان ، ولكى يساعدنا على فهم الصلة بين أكبر قدر من المعلومات التى تبدو بلاصلة بينها ، ولكى يساعدنا على إقامة نسق متكامل من هذه المعلومات .

أنا لا أبدأ بالفكرة الماركسية التى تقول إن التاريخ تصنعه الحركات الاجتماعية . ففى رأيى أن العلماء الذين عملوا فى « مشروع مانهاتن » لاختراع القنبلة النووية الأولى ، كانوا يصنعون التاريخ ، غير أنه من الصعب وصف نشاطهم باعتباره « حركة اجتماعية » .

لهذا فإن إقامة نموذج حول حركات اجتماعية بعينها ، أو على أساس المحور الذى تنتظم حوله تلك الحركات الاجتماعية ، قد يساعدنا فى فهم بعض الجوانب ، لكنه يبدو لى محدوداً .

وهناك جانب آخر من جوانب نموذج أو مخطط الموجة الثالثة يستحق أن ألفت إليه الأنظار ، وهو أنه نموذج يقوم على أساس الصراع .. وأن مضمونه يساعد على وضع نظرية فى الصراع .

أكثر من صراع واحد

● بعض علماء المستقبل يصورون مقدم « مجتمع مابعد الصناعة » على أنه عملية ناعمة سهلة ، هل توافقهم على هذا ؟

ـ لايمكن أن أتصور العالم الذى يتخلق حولنا خاليا من الصراعات ، ولا أتصور أن الوصول إليه عملية تخلو من الصراع . على العكس من هذا تماما ،-أرى أننا نعبر إلى حقبة من الصراعات الاجتماعية والسياسية القاسية العنيفة . ولكى نفهم هذا ، سواء على مستوى العالم ، أو داخل مجتمعنا فقط ، نحتاج إلى ما أشرت إليه من « نظرية فى الصراع » .

● وما الذى يمكن أن تقدمه لنا مثل هذه النظرية ؟

ـ إنها قد تساعدنا على وضع أولويات لهذه الصراعات ، بحيث نركز انتباهنا على الصراعات الأساسية .

● لقد تكلمت عن نموذج « الموجة » باعتباره يوفر مثل هذا النوع من الرؤية . لقد تكلمت فى كتبك عن « الصراع الأكبر » . هل يمكنك أن تشرح نظرية الصراعات التى تنبع من نموذج موجات التغير التى تطرحها ؟

ـ بداية ، عندما أتكلم عن « موجة » من التغيير التاريخى تزحف عبر مجتمع ما ، فأنا لا أعنى تغيرا محددا وحيدا ، فى التكنولوجيا مثلا . أنا أتكلم عن سلسلة كاملة من التغيرات المترابطة التى تحفز بعضها البعض ، وتسارع بعضها البعض ، وتحرك النظام بأكمله نحو وجهة محددة .

بدأ حدوث هذا مع الموجة الأولى من التغيير ، مع انتشار الزراعة ، فشاع نمط جديد من الحياة ، بكل مؤسساتها الاجتماعية والسياسية والدينية الجديدة ، وبكل مبادئها التى تتعامل مع البيئة المحيطة بها .

وعندما شرعت الثورة الصناعية فى دفع الموجة الثانية من التغيير ، بدأت هى الأخرى فى نشر طريقة جديدة فى الحياة ، وأقامت مؤسسات ومبادىء جديدة ، ودخلت فى صراع عنيف مع المؤسسات القائمة للحضارة الزراعية النابعة من الموجة الأولى .

وبالطبع ، تعبير « الموجة » ليس أكثر من تشبيه ، فهذه الموجات من التغيير من صنع الشعوب والأفراد والجماعات المنظمة والجيوش والكنائس ومعامل البحث العلمى ورجال الأعمال والأحزاب السياسية .. إلى آخر ذلك .

وأولئك الذين يستمدون مصالحهم ، الاقتصادية وغيرها ، من نمط الحياة الزراعية ، وجدوا أنفسهم فى حرب مع « طليعة » الجماعات التى كانت تجسد الثورة الصناعية .

وأكثر من هذا ، أن المجتمع الواحد قد تجتمع فيه أكثر من موجة تغيير ، تندفع جميعها فى أنحائه ، فى نفس الوقت ، متصارعة ، ومثيرة لتيارات ونهيرات من الصراع فى جسد المجتمع ، وخالقة أنماطا من الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . (أعتقد أن هذه الحالة التى يتكلم عنها توفلر تنطبق إلى حد بعيد على ظروفنا الراهنة فى مصر ، بقايا قوية للحضارة الزراعية ، ودفعة واضحة من مؤسسات الحضارة الصناعية ، وبدايات لايمكن تجاهلها من حضارة مابعد الصناعة) .

وهذا هو ما أعنيه بنظرية حول الصراع ، قائمة على فكرة موجات التغيير .

الفصل الخامس عشر

مصيرنا ، بين الصدفة والحتمية

هل يعيش عالم اليوم فى ثورة ؟

أحيانا ، يبدو لنا من عناوين الصحف أن زلزالا شاملا قد ألم بالعالم ، وأنه ليست هناك من عاقبة لهذا الزلزال سوى الفوضى الشاملة .

وفى أحيان أخرى ، يبدو لنا الأمر كما لو أننا ننجذب بطريقة لا هوادة فيها نحو مستقبل يعتمد على التكنولوجيا المتطورة ، وأن المستقبل قد جرى تحديده بطريقة مسبقة ، وأنه ليس أمامنا مانفعله لتغيير ذلك المستقبل .

على أحد الطرفين نشهد سيادة الصدفة ، والأحداث الفردية ، والمفاجأة ، والفوضى ، وانعدام اليقين ، وعلى الطرف الآخر نشهد سيادة وضرورة وحتمية حركة تاريخية واسعة مكتسحة ، ليس فى مقدور أحد أن يقف فى طريقها .



هل يؤثر الفرد على التاريخ ؟ .. ومن بين قوى التغيير العديدة ، أيهما الأكثر سيادة وتأثيرا ؟ .. هل هى التكنولوجيا مثلا ؟ .. أم الاقتصاد ؟ ..

دعنا نرى ماذا يقول ألفين توفلر فى هذا .

● يخرج العديد ممن يقرءون أعمالك بانطباع مفادة أنك تؤمن بحتمية الاقتصاد والتكنولوجيا ، وأنك تنظر إليهما كمفتاح للتغير . لقد تكلمت عن تنوع من النظم التحتية ، التى تتشابك وتتبادل التأثير ، وأشرت إلى السمات المتميزة التى تسرى فيها جميعا . ولقد قلت بحدوث ترددات أو تقلبات داخلية فى كل نظام تحتى ، وأن الترددات المختلفة تغذى وتضخم بعضها البعض . وأن هذه الترددات تتزامن

مع الترددات الخارجية الكبرى ، فيتحقق بذلك التغير الأساسى الكبير فى البيئة . ومع ذلك ، عندما تستنبط المبادىء المتصلة بالحضارة الصناعية ـ مثل النمطية والمركزية ـ فأنت تعتبرها نابعة من الركائز الاقتصادية .

حتى عندما تتعرض لموضوعات كالتمييز العنصرى أو الجنسى ، غالبا ما يتلون فكرك بانحياز اقتصادى . إن الأمر يبدو كما لو أن استخلاصاتك كلها قد نضجت فى فرن اقتصادى . كيف تفسر هذه الحتمية التكنواقتصادية فى أعمالك ؟

ـ لقد تكلمت عن هذا من قبل ، إلا أن الأمر يستحق المتابعة .

أنا بصراحة أرفض الاشارة إلى أنى أؤمن بحتمية التكنولوجيا والاقتصاد ، وكل من يقرأ لى بتمعن يتثبت من هذا . أنا لاأؤمن بأن قوة وحيدة مايمكن أن تحرك النظام ، سواء كانت هذه القوة تكنولوجية أو اقتصادية أو عرقية أو جنسية أو بيئوية ، العديد من القوى المؤثرة تظهر بازغة مندفعة فى أوقات متباينة ، لهذا أرى أن محاولة البحث عن قوة سببية سائدة ووحيدة ، هى محاولة خاطئة ومضللة ، أنا ببساطة أفكر بهذه الطريقة .

أنا أميل أكثر إلى التفكير من خلال مصطلحات النمو ، والعلاقات المتبادلة ، والإيقاعات ، وانعدام التوازن ، التفكير من خلال المجالات أكثر من المؤثرات السببية الفردية ، ومن خلال النظم المفتوحة متبادلة التأثير ، أكثر من السببية ذات الاتجاه الوحيد .

هذا الموقف من مبدأ السببية هو من الأمور الأخرى التى تجعلنى مختلفا عن معظم الماركسيين ، فبالنسبة لماركس ، القاعدة هى التى تحدد البنية الفوقية ، الأمر الذى يعنى أن الدين والفن والأخلاق والقيم والقانون ، والثقافة بصفة عامة ، هى مجرد انعكاسات للوضع الطبقى وتبريرات له ، وأن الوضع الطبقى نفسه يتحدد بالقوى التكنولوجية والاقتصادية .

ليس هذا هو مايسير عليه العالم ... فتقسيم نظام اجتماعي كامل وفقا لهذين التصنيفين ، يعكس نظرة اختزالية .

لقد كان ماركس يبحث عن وحدة اقتصادية وحيدة وغير قابلة للانقسام ـ نوع من الذرة ـ يستطيع عن طريقها أن يبنى نظرية علمية في الاقتصاد ، يبسط فوقها ما أسماه البنية الفوقية . لكن العلم الذي اتخذه ماركس نموذجا وهاديا له كان مازال علما نيوتنيا (نسبة إلي العالم نيوتن) ، كان علما سابقا علي اينشتين . لقد كان مخططه أو نموذجه مغلقا مختنقا ، مع أن المجتمع نفسه عبارة عن نظام مفتوح .

أرفض الحتمية التكنولوجية

أيا كانت نواقص نموذج الموجة الثالثة ، وأنا آخر من يزعم أنه مخطط شامل جامع مانع ، فإن هذا النموذج يسمح بمكان أكبر لمزيد من التأثيرات المتبادلة المركبة . إنه يوفر صورة أكثر تنوعا وثراء للبنية الاجتماعية . إن هذا النموذج يتقبل احتمال أن تبدو التكنولوجيا دافعة وقائدة للنظام ، لكنه يعتبر التكنولوجيا فى حد ذاتها تتشكل بصفة دائمة وفق قوى أخري .

فالتكنولوجيا التي يختار مجتمع ما أن يركز عليها ، لاتكون متأثرة فقط بالاعتبارات الاقتصادية ، لكنها تتأثر أيضا بالموارد الطبيعية الخاصة بذلك المجتمع ، وبمستويات التعليم ، وبالمخاطر الثقافية والدينية ، وبالاعتبارات البيئية ، وغير ذلك من الاعتبارات ... وليس هذا موقف من يؤمن بالحتمية التكنولوجية .

إنى أتخذ موقفا معاكسا ، بشكل ملحوظ ، حتي من أولئك الماركسيين الذين يعترفون بأن مايسمونه بنية فوقية يمكن أن يؤثر علي الأسس الاقتصادية والتكنولوجية .. فبينما هم يعترفون بإمكان مثل هذه التغذية الارتدادية (فيدباك) ، إلا أنهم يرون أن القوانين والفن والدين وغير ذلك من العناصر التى تتضمنها البنية الفوقية ، هى فى حد ذاتها مجرد انعكاس للأوضاع الطبقية ، وأن هذه

الأوضاع الطبقية تتحدد أساسا بالاقتصاد . وبهذا يصممون على أن الاقتصاد والتكنولوجيا هما اللذان يدفعان النظام بأكمله ، بطريقة أو أخرى ، وبشكل مباشر أو غير مباشر .

وهذا موقف لا أقبله ، ولن أقبله .

الأسرة والاقتصاد

● إذا كنت تقول إن الماركسية الحرفية لاتصلح اليوم ، لأنها تقيم كل شيء على الاقتصاد ، فإن هذا لايثبت أن تناولك لايخضع لنفس النقد . أنت غالبا ماتتحدث عن تأثير الاقتصاد والتكنولوجيا على المؤسسات والنشاطات الأخرى . مثال ذلك ، إنك أوضحت في كتاب « الموجة الثالثة » كيف استجابت الأسرة للتغيرات التى دخلت على نظام الإنتاج . أنت نادرا ما تتعرض للتحليل المعاكس .. لم تشرح لنا كيف تأثرت العلاقات الاقتصادية بالتغيرات فى علاقات الأسرة مثلا ؟ ...

ـ لكن هذا لايعنى أن الأسرة لم تؤثر بدورها في النظام الاقتصادى . لقد جرى ذلك فى الماضى ، ويجرى حاليا . لكن مثل هذا التأثير يغلب أن يحدث على امتداد زمن أطول . التأثير الفعلي يمكن أن تشعر به في ظرف ٢٥ سنة أو مايقرب من ذلك . مثال ذلك أن التعليم يتكفل بتنشئة الطفل ، وهو بهذا يؤثر على المجتمع ، إلا أن هذا الأثر لانشعر به إلا فى مرحلة تالية .

نصل من ذلك إلى أنه في هذه الحالات ، مثل العلاقة بين الاقتصاد والأسرة ، يكون الاقتصاد قوة دافعة ثقيلة فى البداية ، بينما يتأخر ظهور التأثير المتبادل من الاتجاه الآخر .

باختصار أنا لا أعتقد أن « القاعدة » تحدد « البنية الفوقية » ، أو أن الاقتصاد متغير مستقل . لقد بذلت جهدا كبيرا فى أعمالى ، مستهدفا إظهار أثر العوامل غير الاقتصادية فى الاقتصاد .

التباطؤ الثقافى

● ألا ترى احتمال أن نتجه نحو اقتصاد الموجة الثالثة ، مع بقاء أسرة الموجة الثانية على حالها ؟

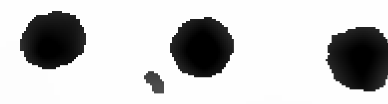
ـ لا أقول باحتمال هذا .

● هل تراه إذن مستحيلا ؟

ـ ولا أستطيع أن أعتبره مستحيلا . ما أقوله بالتحديد . عندما يتغير مجال فى نظام اجتماعى أو حضارة ، فالأرجح أن تستجيب باقى المجالات لهذا التغيير .

منذ سنوات كتب وليم فيلدنج أو جبيرن بتوسع عن التباطؤ الثقافى . لقد شرح مايحدث عندما تفقد عدة نظم داخل مجتمع ما التزامن الذى بينها . وأعتقد أنه كان مصيبا . إن مؤسساتنا الاجتماعية الحالية تتأثر بالمعدلات المختلفة للتغيير ، والتى يتسارع بعضها بشكل حاد ، وهذا التأثير الذى يحدث لهذه المؤسسات يجرى بطرق شديدة التنوع . لهذا ، فإن المؤسسات تكافح من أجل التوافق مع إيقاع بعضها البعض .

فبنية الأعمال كبيرة الحجم تتغير بسرعة ، بينما يكون تغير بنية المدارس والبيروقراطيات الحكومية الكبيرة أبطأ بكثير . وينجم عن هذا تنوع سريع فى المجتمع ، ومزيد من التباين فى أجزائه ، فى الوقت الذى يتحرك فيه النظام السياسى بإيقاع تنوع منخفض . هذا الفارق الزمنى فى التوافق والتكيف يخلق توترا شديدا فى المجتمع .



لكن ، بعيدا عن معدلات وإيقاعات التغير ، افترض أن التغيرات التى تلحق بالحياة الأسرية ، أو بشكل أعم ، بالمجال الاجتماعى ، لابد أن تقابلها تغيرات ، إما للتوافق معها أو لمقاومتها ، فى كل جوانب النظام .

إصنعها بنفسك

● والعكس صحيح ؟

ـ العكس صحيح تماما . إننا نواجه تغيرات عميقة في بنية الحياة العائلية ، داخل معظم دول التكنولوجيا المتطورة ، كلما دخلنا أكثر في الموجة الثالثة . وهذه التغيرات في حد ذاتها تؤثر على الاقتصاد .

مثال صغير على ذلك : وجود عدد كبير من الأفراد يعيشون بمفردهم في مجتمعنا ، بدأ يؤثر على معالم بنية سوق الإسكان . وأصبحنا نجد شخصا وحيدا يريد أن يشترى بيتا له في الضواحي ، كما أن شقق العمارات تزداد صغرا لتفي بحاجة شخص يعيش بمفرده . ولاريب أن لهذا تأثيره على الاقتصاد ، هذا مجرد مثال صغير . لكن هناك بلا شك آلافا من مثل هذه التأثيرات تتدفق عبر النظام ، تأثيرات عديدة لم يتم حتى الآن رصدها .

لقد كتبت عام ١٩٧٥ عن ارتفاع معدلات الطلاق ثم الزواج ثانية ، وعن تزايد الانتقال الجغرافي للمواطنين ، وعن التغيرات الاجتماعية الأخرى ، وأوضحت كيف يساهم هذا كله في أحداث التضخم . كما أن المعدلات العالية لتفكك أواصر الأسرة شجعت حركة « إصنعها بنفسك » ، والتي تتجسد في انتاج وبيع الأدوات والخامات التي تتيح لك القيام بالأعمال المنزلية من نجارة إلى سباكة إلى طلاء ، كما شجعت حركة « ساعد نفسك » والتي تتضمن البحث عن حلول محلية تعاونية ، دون الالتجاء إلى المختصين . وقد كان لمثل هذه الحركات تأثير هائل على مستقبل اقتصادنا ، أشرت إلى جانب منه في « الموجة الثالثة » .

اقتحام قصر الشتاء

● إذا لم تكن التكنولوجيا والاقتصاد هما القوتين الدافعتين الوحيدتين للنظام ، ترتب على ذلك أن السياسة بدورها ليست قوة

دافعة وحيدة أيضا . وفى هذه الحالة ، فإن أصحاب النشاطات الثورية فى جميع الاتجاهات عندما يركزون فقط على السياسة ، او يقصرون تركيزهم على موضوع سياسى خاص ، فهم يخاطرون بإغفال عوامل حاسمة بالنسبة لهدفهم الأكبر .. ومعاملتهم قضية الثقافة أو قضية التمييز بين الجنسين ، مثلا ، كعامل هامشى ، يمكن أن يشكل مقتلا لكفاحهم ، بل وبالنسبة لأهدافهم الاقتصادية أو السياسية .

ـ صحيح تماما .. هناك عبارة ، أعتقد أنها من أقوال لينين ، حول الحاجة إلى « كسر أضعف حلقات السلسلة » . وهذا يكشف عن الفهم الميكانيكى للسببية الاجتماعية ، الذى اتسمت به الموجة الثانية .

إذا ماكان الفرد مهتما بإحداث ثورة حقيقية ، أو بمعنى أدق مهتما بتسهيل حدوثها ، فلا مجال هنا للحديث عن إحلال طبقة محل أخرى ، أو عن الاستيلاء على « جهاز الدولة » ، أو على اقتحام قصر الشتاء ! .. على الفرد أن يتحدث عن شىء مختلف تماما ، شىء أساسى للغاية هو : تحويل حضارة بكاملها . وإذا كان الفرد يتمنى أن يساعد فى حدوث هذا ، مركزا فقط على العوامل الاقتصادية والسياسية ، فإنه يرتكب خطأ يجلب عليه الفشل .

هذا يعنى أن بإمكان البشر جميعا وبكل أنواعهم وأنماطهم أن يساهموا فى هذا التحويل ، وليس فقط أصحاب النشاط السياسى ، أو « الثوريين المحترفين » . إنه يعنى ضرورة إسناد أدوار إلى العلماء والمديرين والفلاسفة وأنصار المرأة والمعلمين والممرضين ، ودعاة الحقوق المدنية ، ودعاة المحافظة على البيئة ، ومصممى برامج الكمبيوتر ، إلى آخر ذلك من الطوائف ، ويعنى أيضا أن هؤلاء يجب ألا ينظر إليهم كمجرد حشود تابعة تزحف خلف بعض « الأحزاب الطليعية » ، أو وراء طبقة معينة .

إذا كان ماقلته فى « الموجة الثالثة » صحيحا ، وأن هناك ترابطا بين المجالات التكنولوجية والاجتماعية والإعلامية والبيولوجية

والسلطوية .. وأن أيا من هذه المجالات لايشكل « قاعدة » تهبط فيها المجالات الأخرى إلى مستوى « البنية الفوقية » .... إذا كان ذلك كله حقيقيا فإن التغيرات المطلوبة ، تتصل بكل هذه المجالات ، وفى نفس الوقت .

وأقع الأمر أن هناك تغيرات عميقة وسريعة تجرى فعلا فى كل هذه المجالات ، تشعل شرارتها جماعات من نوعيات مختلفة ، وأن هذه الجماعات لاتنظر إلى جهدها باعتباره نشاطا سياسيا ، أو نشاطا ثوريا .

بين الصدفة والحتمية

● تقول إنه لايوجد مستقبل وحيد ، بل مجموعة من المستقبلات الممكنة ، وإننا يجب أن نختار بينها .

ـ نعم ، ولكن حيث إن المستقبل لايكون حتميا بشكل كلى ، فهناك وجه آخر للأمر ، لم نتحدث عنه بعد ، أعنى بذلك عنصر الصدفة .. وأنا أعتقد أن الصدفة تلعب دورا له دلالة كبرى فى التغيير الاجتماعي .

في هذا المجال يحضرني مثال ، وإن كان مأساويا .

ذات يوم فى ربيع عام ١٩٨١ ، كنت فى أحد مكاتب جريدة « هيوستن بوست » ، وكانت إحدى الصحفيات تجرى معى حديثا ، وتسألنى عن حتمية تحقق الموجة الثالثة . فأجبتها بأننى لا أؤمن بالحتمية التاريخية . بل وأؤمن بأن الصدفة تلعب دورا ملحوظا فى شئون البشر . قلت لها : ربما ونحن نجرى حديثنا هذا ، يقوم أحد المراهقين فى جواتيمالا بقذف أحد الجنود بحجر ، فتتدافع الأحداث ، مؤدية إلى حرب عالمية ثالثة .

فى تلك اللحظة ، سمعت صوت طلقات ، وأضاءت فجأة ثلاث شاشات تليفزيونية ، وسمعنا صيحات وصرخات « لقد أطلق الرصاص على الرئيس » . فاندفع الجميع نحو أجهزة التليفزيون

يتابعون هيج وهو يعلن توليه للأمور .

لقد أعادنى الحدث ثانية إلى العلاقة بين الصدفة والحتمية فى التاريخ .

لا أعتقد أن هناك مستقبلا معينا محددا يكون حتميا ، كما لا أظن أن الموجة الثالثة أمر مقضى لايمكن تفاديه . ومرة ثانية ، أرانى أتفق مع برجوجين فى قوله إن الصدفة والحتمية يعملان عملهما فى كل حدث . وهى فكرة ليست جديدة فى حد ذاتها ، ولكن برجوجين يربط بين الصدفة والحتمية بطريقة جديدة .

يقول برجوجين : إنه فى لحظة معينة ، تصل البنية القديمة إلى نقطة التحول الثورى بسبب مجموعة من الترددات والضغوط .. فى هذه اللحظة تلعب الصدفة دورها . فمن الممكن أن يتجه النظام إلى عديد من الاتجاهات البديلة . ولكن ، بمجرد أن تتم هذه الخطوة الحرجة ، تكون الصدفة قد قامت بوظيفتها ، فيمضى النظام فى الاتجاه الذى اندفع إليه ، محكوما بالحتمية مرة أخرى ، وإلى حين أن تكتمل الترددات والتقلبات التى تؤدى إلى أزمة جديدة فى بنية النظام .

احتمالات من كل نوع

● وهل يمكن للفرد أن يلعب دورا فى هذا كله ؟ .

ـ نعم بالطبع .. الصدفة تلعب دورها إلى جوار المؤثرات الحتمية ، لكن حتى فى المجالات التى تبدو حتمية أكثر من غيرها ، يوجد مكان لتأثير الفرد . العامل الفردى يمكن أن يؤدى ـ على الأقل ـ إلى إبطاء الحركة ، أو حرفها ، أو مقاومتها .

ومن الممكن جدا لفرد واحد ، وبضربة واحدة ، أن يلغى مقدم الموجة الثالثة . عن طريق إشعال نار الحرب العالمية الثالثة ! ! ..

مع كل ماقلناه .. فهناك احتمالات من كل نوع يمكن أن تعيد صياغة المستقبل .

الفصل السادس عشر

حزب « مصر المستقبل »

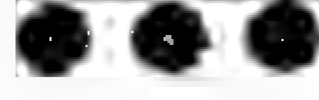
والآن .. ماذا عن مستقبل مصر ؟ .. وإلى أى مدى يمكن أن ينطبق ماطرحناه حول مستقبل العالم على الظروف الخاصة التى تمر بها مصر حاليا ؟ .. هل يمكن أن يكون لمصر وغيرها من الدول النامية مستقبل يختلف عن مستقبل الدول الصناعية المتقدمة ولايخضع لنفس مسار تطور الأوضاع الذى طرحناه ؟

ثم ، وهذا هو الأهم ، هل تساعدنا حضارة مابعد الصناعة على تقريب الهوة التى تفصل بيننا وبين الدول الصناعية المتقدمة ، والتى تتزايد يوما بعد يوم اتساعا وعمقا ؟ أم أنه مكتوب علينا أن نبقى نعانى من هذا الوضع الباعث على اليأس ، خلال زمن الحضارة القادمة أيضا ؟

وأخيرا ، من أين نبدأ ؟ ، ومن الذى يستطيع أن يضع قدمنا على أول الطريق الصحيح ؟ .. هل تستطيع الحكومة - أى حكومة - بكل مؤسساتها ، وبكل جهات التخطيط فيها أن تقوم بهذا الجهد ؟ هل يمكن لأولئك الغارقين فى حل مشكلاتنا الآنية - وهى كثيرة جدا - أن يتجاوزوا هذا الجهد ، وأن يغيروا من رؤيتهم الحالية النابعة من مبادىء الحضارة الصناعية ، وأن يتبنوا السياسات والخطط التى تقوم على مبادىء حضارة المستقبل ، حضارة مابعد الصناعة ؟ .. وإذا لم تكن الحكومة قادرة على ذلك ، فمن الذى يتصدى لهذا العمل المصيرى ؟ .. هل هى الأحزاب الحالية ، التى تتوافق وتتناقض على أساس ماهو كائن ، وليس على أساس ماسيكون ؟ .. هل هى جهات التخطيط والمجالس المتخصصة التى مازالت ترى المستقبل امتدادا آليا لخطوط الحاضر ؟

إذا لم يكن بمقدور هؤلاء أن يتصدوا لهذا الجهد ، بحكم

المؤسسات والتنظيمات التى يعملون من خلالها ، فمن الذى يستطيع ؟ .. وكيف ؟ ... وبأى دافع أو حافز ؟



الذى لاشك فيه أننى غير قادر على الإجابة عن كل هذه التساؤلات . وغاية ما أطمح إليه ، هو أن أثير اهتمام وحماس بعض المخلصين الذين ـ كما قلت فى مقدمة هذا الكتاب ـ يبدون استعدادا للخروج من مشاغل الحياة اليومية ، وللمساهمة فى هذا الجهد الشاق ، الذى لايجتذب الأضواء ، ولايحقق نفعا خاصا .

لقد قلت أيضا إن أصحاب هذا الحماس لايمكن أن يكونوا ـ فى ظروفنا هذه ـ إلا قلة محدودة ، لكننا لانحتاج فى هذه المرحلة من الدراسة والبحث إلى أكثر من نواة .. نواة لما أسميته حزب « مصر المستقبل » ، وقلت إنه حزب لايسعى إلى الحكم ، أو إلى الدخول فى صراع مع الأحزاب الحالية ، ولكنه يسعى إلى استقطاب كل المخلصين الفاهمين ، القادرين على الفهم والحلم ، من الحزبيين وغير الحزبيين . بهدف التعاون لرسم صورة ـ أقرب إلى الدقة والواقعية ـ لمستقبل مصر فى مطلع القرن الحادى والعشرين ، تساعد فى وضع استراتيجية شاملة لمصر ، نهتدى بها فى تصريف أمورنا اليومية ، وفى وضع خططنا الخمسية .. استراتيجية تساعدنا على الخروج من دائرة ردود الفعل المحبطة ، إلى نطاق الفعل الإيجابى الخلاق .

بل إننى أطمع فى أن تتحول هذه الاستراتيجية العامة إلى مشروع تاريخى لمصر ، يزرع فى نفوس أبناء شعبنا بذرة الطموح القومى ، الذى نفتقده بشدة منذ سنوات طويلة ، والذى لم تنجح فى توفيره برامج أى حزب من الأحزاب الحالية .

البكارة الثقافية

ورغم أن هذا الجهد يفيد الحكومة ولايتناقض مع نشاطها ،

ويساعدها على تقويم جهدها ، وتنسيق نشاطها ، ويرفع عنها الكثير من عناء تبديد الجهد فيما لايتفق مع صالح مصر المستقبل ، رغم هذا ، فأنا لا أتصور أن تقوم بهذا الجهد جهة حكومية أو هيئة رسمية من هيئات التخطيط .. على الأقل فى المراحل الأولى لرسم هذه الاستراتيجية .

أتمنى أن يكون جهد وضع الخطوط العريضة لاستراتيجية مصر ، جهدا أهليا شعبيا تطوعيا ، تساهم فيه الحكومة والأحزاب ، والهيئات العلمية والثقافية خارج سلطة أو تحكم أى من هذه الجهات .

لماذا ؟ ..

لأننى مؤمن بأن الذى سنصل إليه سيتناقض تناقضا أساسيا مع كل ماتمضى فيه هذه الجهات ، بما فى ذلك جهات التخطيط .

أريد لمن يشاركون فى هذا الجهد أن يدخلوا فى حالة من الخلوص الفكرى والبكارة الثقافية ، والتحلل من ضغط الأمر الواقع الذى تفرضه المشكلات اليومية ، دون إغفال ذلك الواقع للحظة واحدة عند التفكير فى المستقبل .. أريد لهم أن يتزودوا بالعلم والخيال عند تصديهم لهذه المهمة .

أريد أن أجنب هذا الجهد تعصب أصحاب الرؤيةالجامدة ، والتخصص الضيق ، ومن تجاوزوا حياة الدراسة والمعاناة والتفكير إلى استثمار ماكانوا قد حصلوه فى زمن سابق .. أريد أن أجنبه سدنة المذاهب السياسية والنظريات الاجتماعية النابعة من حضارة تلفظ أنفاسها الأخيرة .

أريد أن يساهم فى هذا الجهد أولئك الذين لايهربون ـ يأسا ـ إلى الماضى ، وأولئك الذين لايتمسكون تمسكا مستميتا بحاضر يجنون ثماره .

المستقبل ليس رفاهية

قلت فى مقدمة هذا الكتاب إن الحديث عن المستقبل ليس

رفاهية .. وأكرر هنا إن الكفاح لإرساء أصول استراتيجية لمصر ليس تزيدا ، أو سفسطة نظرية لاتحتملها الظروف الحالية لمصر . إن الأمر على عكس هذا تماما ، فالظروف الحالية لمصر هى التى تدفعنا دفعا إلى استنباط مثل هذه الاستراتيجية التى تدفع بكل جهد مهما صغر فى اتجاه حل المشكلات ، وإصلاح المسار .

إن ما أدعو إليه ستكون له أكبر الانعكاسات على أصغر أمورنا اليومية ، وأدق تحركاتنا المؤقتة . إنه السبيل إلى تقويم الجهود ، والقصد فى التصرفات والانفاق ، وتنسيق النشاطات ، سواء على المستوى الفردى ، أو على مستوى المؤسسات ، أو على مستوى السياسات والقرارات المصيرية بالنسبة للدولة .

إن مثل هذه الاستراتيجية ستحدد موقفنا من كل شىء .

● هل نقيم المفاعلات الذرية التى تعتمد على الانشطار بكل مخاطرها ونفقاتها ؟ ، أم نعتمد على تنوع عريض من مصادر الطاقة ؟ .. هل نقتصر على المشروعات الضخمة للطاقة التى تميزت بها الحضارة الصناعية ، أم نفتح الباب واسعا لمصادر الطاقة الصغيرة والمتوسطة ، والتى تناسب موقع المشروع وطبيعته ؟

● هل نمضى فى إقامة الصناعات الكهروميكانيكية ، كصناعة الصلب والسيارات والسكك الحديدية والمطاط ، ونسمح للمزيد من المداخن أن تنتصب فوق أرضنا ، ناشرة التلوث فى أجوائنا ، ونرضى بهذا للعامل المصرى أن يظل فى عداد العمال العضليين الذين يقومون بجهد متكرر غير خلاق ؟ .. أم نشرع - بجهد مكثف - فى وضع بذور مشروعات صناعية تعتمد على التكنولوجيا المتطورة ، مثل الالكترونيات ، وهندسة الجينات ، ووسائل الاتصال المتطورة ، آخذين بمبدأ تنوع الأسس التكنولوجية ، وفى وضع خطة شاملة لتدريب العمال وإعادة تدريبهم ، ليتوفر لنا الرصيد المناسب من العمالة العقلية الابتكارية ؟

● هل نظل نقلد الدول الصناعية الكبرى فى أساليب إنتاجها

واستهلاكها ، حتى بعد أن بدأت هذه الدول - مضطرة - فى تغيير الأسس والمبادىء التى التزمت بها على مدى ثلاثة قرون ؟ أم نقيم نظاما مرنا يتفق مع ظروفنا ، ويستفيد من المعالم التى قد اتضحت للحضارة القادمة ؟ هل نسعى إلى تركيز نشاطنا الصناعى فى كيانات ضخمة موحدة ، أم نقيم مشروعات صناعية صغيرة ومتوسطة فى الأماكن المناسبة على اتساع خريطة مصر ؟

● هل نشجع قطاع الانتاج من أجل الاستهلاك الشخصى ، ونوفر له الأدوات والخامات والمعلومات ، أم نقتصر على التوسع فى قطاع الانتاج من أجل المبادلة ، ونزيد بذلك سطوة السوق على حياتنا ؟

● هل يكون تطوير مدارسنا وجامعاتنا بالتوسع فيما هو قائم ، أم نبدأ فى وضع أساس نظام تعليمى جديد تماما ، لايستمد إيقاعه ومنطقه من خطوط التجميع فى المصانع ، ولايقوم على النمطية والتزامن والتخصص الشديد ... نظام تعليمى يعبر بالمواطن المصرى إلى القرن الحادى والعشرين ؟

● هل نتمسك بالتوازن الحالى لجهدنا فى توفير وسائل الاتصال ووسائل الانتقال ؟

نضع ثقلا خاصا على وسائل الاتصال المتطورة ، الأقل استهلاكا للطاقة ، والأقل تلويثا للبيئة ، والأقل استنزافا للجهد والوقت ، والتى تشيع شعار « اتصل ولاتنتقل » ؟

الأمل القومى

هذه الاستراتيجية التى أدعو كل المخلصين الفاهمين إلى المساهمة فى رسم إطارها وتعميق الوعى بها ، هى التى ستبعث الدماء حارة فى شرايين مصر ، وهى التى ستنقذنا من الجمود واليأس ، وهى التى ستجعلنا أكثر إيجابية ، وتزرع الأمل القومى فى نفوسنا .

لماذا ؟ .

لأن المتأمل لخريطة موقف الإنسان المصرى المعاصر من المستقبل ، سيجده ملتزما بأحد المواقف التالية :

● عدم التفكير أصلا فى المستقبل .

● تصور أن العالم سيبقى على حاله إلى الأبد .

● استعارة نماذج تاريخية نابعة من ظروف حضارية سابقة ، كمهرب من الحاضر الباعث على اليأس .

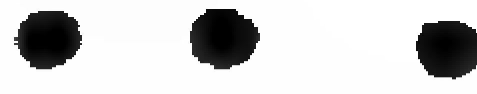
● الاعتراف بأن العالم يتغير ، ولكن بنفس الطريقة والمعدلات التى تغير بها فى الماضى .

وجميع هذه المواقف تقود إلى حالة من الجمود أو اليأس ، وتشيع بيننا مشاعر الفردية والسلبية ، وفقدان الإرادة .

إذا كان المستقبل استمرارا لما هو حادث ، فهو مستقبل قاتم يكرس تخلفنا الحضارى ، ويزيد من الهوة التى تفصل بيننا وبين الدول المتقدمة .

وإذا كان المستقبل يتغير صانعا صورة مكبرة للحاضر ، فهذا يعنى أن مشكلاتنا فيه ستكون أكبر .

وإذا حاولنا ثنى مسار التاريخ ، وتطلعنا إلى نماذج تاريخية سابقة تحققت فى غير الزمان والمكان ، بدافع الحنين إلى الماضى المزدهر أو اليأس من الحاضر ، انعزلنا عن مسار التطور الطبيعى ، ودهمنا الواقع بطريقة تفقدنا توازننا .



لهذا كله ، أدعو إلى استراتيجية تقوم على أساس فهم للواقع وللمستقبل .. استراتيجية تنطلق من حقيقة أننا نمر بمرحلة تحول حضارى ، كالتى مر بها العالم منذ ٣٠٠ سنة ، عندما تحول من الحضارة الزراعية إلى الحضارة الصناعية ، مع فارق حدة التغيرات وتسارع حدوثها ..

تجاوز الهوة الحضارية

قلت فى مقدمة الكتاب إن اللحظة التاريخية الراهنة تعتبر فرصة مواتية لكى نقوم بما أسميته « تخريمة حضارية » ، نتجاوز بها هوة التخلف الحضارى التى تفصل بين الدول النامية والدول الصناعية المتطورة .

منذ نصف قرن فقط ، لم يكن ممكنا أن نقول ذلك ، لأن الحضارة الصناعية كانت لاتزال تسيطر على العالم ، بكل مبادئها وقيمها وثقلها . كانت الفجوة الحضارية بيننا وبين الدول المتطورة قدرا لايمكن الفكاك منه ، بل كانت تلك الفجوة تزيد يوما بعد يوم ، مهما بذلنا من جهد للحاق بركب الدول الصناعية المتقدمة .

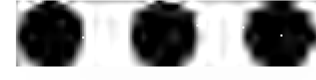
منذ نصف قرن فقط كانت جهود المخططين تمضى وفق قوانين ثابتة معمول بها . وكان التزامهم بهذه القوانين هو عين العقل والمنطق .

أما اليوم ، ومنذ النصف الثانى من خمسينيات هذا القرن ، فقدت قوانين الحضارة الصناعية فعلها .. لم تعد تنطبق على مايمر بالعالم من أحداث ، وبدت الصورة فى أنظار المتمسكين بهذه القوانين ، وكأن العالم قد أصيب بالجنون . وقد ظهر هذا بشكل أكثر حدّة فى المجتمعات الصناعية المتطورة ، تلاحقت التغيرات ، تغيرات متسارعة تخضع لقوانين جديدة ، تكاد تكون متناقضة مع القوانين السابقة .

هنا تبرز فرصتنا ، وفرصة غيرنا من الدول النامية أو المتخلفة .

هنا تلوح معالم الأمل الذى يمكن أن يتحقق لو أننا أدركنا واقع مايحدث عالميا ، واقتنعنا بأن مواصلة تقليد نمط مجتمعات الحضارة الصناعية بشكل أعمى ، سيبدد جهودنا ومواردنا ، ويبقينا فى مؤخرة طابور التطور .

هنا تظهر فرصتنا لتجاوز الهوة الحضارية التى فرضت علينا لعدة قرون ، وفرصة الالتزام باستراتيجية جديدة للتطور والتنمية ، تستلهم ملامح الحضارة القادمة وتدخل فى اعتبارها خصائصنا الثقافية والدينية والإنسانية .



ماذا بعد ؟ ..

لقد طرحت رؤيتى كاملة ، فاتحا الباب لكل من يهمهم مناقشة هذه الرؤية ، والمساهمة فى هذه المهمة الصعبة .

أفتح باب المناقشة لكل الآراء من كل الاتجاهات ، المؤيدة والمعارضة لهذه الرؤية ، على أمل الوصول من خلال حوار جاد ، إلى استنباط للأسس التى تقوم عليها استراتيجيتنا ، وإلى تشكيل نواة مجموعة تتكفل برسم الخطوط العريضة للاستراتيجية التى أدعو إليها ، من أجل « مصر المستقبل » .

فهرس

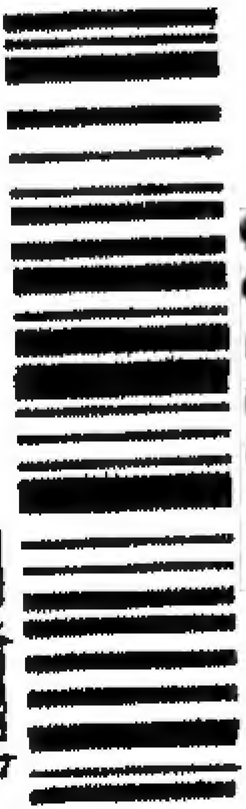
صفحة

رقم الايداع ٧٨٠٣ ـ ١٩٨٦
الترقيم الدولى ٠ ٩ ـ ٢٧٤ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

هـذا الكتـاب

كتاب يجب أن يطلع عليه كل مهتم بمستقبل مصر ، ومستقبل البلاد النامية بشكل عام . وهو يطرح صورة شاملة للتحول الحضارى الذى يمر به العالم هذه الأيام ، والذى يرسى أساسا جديدة لجميع النشاطات البشرية ، فى المستقبل القريب والبعيد .

فى هذا الكتاب يقوم راجى عنايت بطرح صورة مفصلة لشواهد انهيار الحضارة الصناعية التى سادت العالم على مدى ثلاثة قرون ، ومعالم الحضارة الزاحفة .. حضارة مابعد الصناعة . ويلفت النظر الى الفرصة المتاحة لمصر وغيرها من البلاد النامية ، فى تجاوز هوة التخلف الحضارى التى تفصل بينها وبين الدول الصناعية المتقدمة .



٢٠٠ قرش